البحث الخامس عشر



موقف المستشرق بلاشير من القرآن الكريم
من خلال كتابه (القرآن .. نزوله، تدوينه،ترجمته، تأثيره)
دراسة ونقد

إعداد

د. محمد عبد النبي سيد محمد
الأستاذ المساعد بقسم الشريعة
والدراسات الإسلامية
كلية التربية والعلوم
فرع جامعة الطائف بالخرمة

د. إبراهيم علي علي عامر
الأستاذ المساعد بقسم الشريعة
والدراسات الإسلامية
كلية التربية والعلوم
فرع جامعة الطائف بالخرمة

١٤٣٦هـ - ٢٠١٤م

مقدمة

الحمد لله الذي أنزل على عبده كتاباً محفوظاً في الصدور لا يخلق ولا يبلى على مر الدهور، وأثاب على قراءة كل حرف منه بأعظم الأجور، والله يضاعف لمن يشاء وهو العليم بذات الصدور، وأصلي وأسلم على سيدنا محمد سيد ولد آدم الذي نَعْتُهُ ونعت أمته في كتبه المتقدمة مذكور، وعلى آله وصحبه الذين حملوا القرآن وسعوا في تعليمه فسعيهم مشكور، والتابعين لهم بإحسان ممن تلاه حق تلاوته ما تعاقب الظلام والنور.

وبعد؛ فمنذ نزل القرآن العظيم وهو محاط برعاية الله وعنايته فلم يكل حفظ هذا الكتاب إلى عباده حتى لا يضيع، كما أضاع أهل التوراة كتابهم حينما وكل حفظه إليهم كما في قوله تعالى: {بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ}(١).

وهذا الحفظ باق إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فلا تزال طائفة من هذه الأمة حاملة للواء الحق ظاهرة به لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله، فقال تعالى: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ}(٢).

والقرآن الكريم منذ أن صدع به النبي صلى الله عليه وسلم وقرع به مسامع قومه وهو يواجه افتراءات وأباطيل المكذبين منهم، يدعون أنه قول بشر وينسبونه إلى محمد صلى الله عليه وسلم أو إلى شيطان يأتيه به أو إلى رجل من الأعاجم النصارى إلى غير ذلك من هذه التهم التي لم يجدوا له دليلا سوى نفثات أحقادهم، وقد تحداهم القرآن أن يأتوا بمثله أو بعشر سور من مثله أو بسورة من مثله فعجزوا عن كل ذلك.

ولكن المبطلين لا ينفكون عن الهجوم عليه في كل عصر، محاولين

(١) سورة المائدة الآية: ٤٤
(٢) سورة الحجر الآية: ٩

التشكيك في مصدره أو لغته أو نزوله أو جمعه أو تفسيره، ولكن هيهات فأنى لهم أن يواروا الشمس بأكفهم، فقد غدت محاولاتهم اليائسة، كما قال الشاعر:

كناطح صخرة يوما ليوهنها ... فلم يضرها وأوهى قرنه الوعل

وفي الفترة الأخيرة ظهر الاستشراق بمحاولاته السمجة للهجوم على الإسلام عموما والقرآن خصوصا، مرددين ما سبق أن قاله كفار العرب قديما، وأضافوا إليه افتراءات ابتكروها من عند أنفسهم وألبسوها ثياب العلمية كذبا وزورا، وما هي إلا إفك وبهتان، ونفثات أحقاد، ومحاولات لطمس الحقيقة وتشويهها، {وَجَحَدُواْ بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً}[1].

وبلاشير ذلك المستشرق الفرنسي واحد من أولئك المستشرقين الذين شرقوا بالإسلام، فصرفوا همهم إلى دراسة القرآن وترجمته، وتوجيه سهام النقد له، وراحوا يبحثون هنا وهناك علهم يظفرون بتهمة، أو شبهة، فلم يجدوا سوى افتراءات كاذبة، وأباطيل فاشلة.

وفي هذا البحث نلقي الضوء على موقف ذلك المستشرق من القرآن الكريم من خلال كتابه المسمى: (القرآن .. نزوله، تدوينه، ترجمته، تأثيره) وهو من أهم كتبه التي وضع فيها آراءه وخلاصة موقفه من القرآن، ثم نكر على آرائه هذه بالنقد والتفنيد لنظهر زيفها ونكشف ضلالها.

أهمية البحث:

تتجلى أهمية هذا البحث في عديد من الأمور منها:

١- أنه يتناول فكر أحد أهم المستشرقين الفرنسيين في القرن العشرين الذين اهتموا بدراسة القرآن الكريم والبحث حوله وترجمته، ولا شك أن

(١) سورة النمل الآية : ١٤

الدراسات الاستشراقية تلعب دورا كبيرا في صياغة الفكر الغربي عن الشرق عموما وعن الإسلام خصوصا، ليس ذلك فحسب بل وتؤثر على فكر كثير من الشرقيين بل وعلى بعض المسلمين، ومن ثم كان من الضروري عدم إغفال هذه الدراسات لمعرفة ما تشتمل عليه وتنتهي إليه، ونقده وتفنيد ما تشتمل عليه من شبه وأباطيل وتناقضات وأوهام وافتراءات وأكاذيب حول الإسلام ورسوله وكتابه، لإظهار الحق وإيضاحه ونصره، والرد على الباطل ودحره.

٢- ومن جهة أخرى فإن الدفاع عن العقيدة الإسلامية وثوابت الدين ومقدساته من أوجب الواجبات على المختصين لاسيما في خضم تلك الهجمات الشرسة التي تشن على الإسلام من هنا وهناك بكافة الطرق والوسائل، ولاشك أن أعداء الإسلام في الغرب يستخدمون البحث العلمي كأداة من أدوات الطعن في الإسلام والهجوم عليه، فكان لزاما على الباحثين والعلماء وطلبة العلم أن يقوموا بدورهم لصد العدوان والذود عن حياض الإسلام وعقيدته فهم على ثغر من ثغور الإسلام مرابطون.

٣- كما أن هذا البحث يأتي ضمن الأبحاث التي تستهدف خدمة كتاب الله الكريم بدفع محاولات التشويه والاجتراء عليه ولاشك أن هذه الأبحاث لها من الأهمية ما لها لما يمثله القرآن للأمة وما يشغله من مكانة في الإسلام فهو المصدر الأول للتشريع والمعجزة الخالدة الشاهدة على صدق رسولنا صلى الله عليه وسلم وأنه الكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وأنه لا يمكن أن يكون من قول البشر، فهو معجز بلفظه ومعناه ونزوله وترتيبه، وسيظل القرآن منهلا عذبا لكل وارد يرد حياضه فيرتوي من صافي منهله وعذب مورده، فهو لا تنقضي عجائبه ولا تتناهى أسراره وكنوزه بل تتجدد عطاءاته وتزداد

فوائده.

منهج البحث:

يتبع البحث المنهج الاستنباطي في جانب العرض حيث يقوم الباحثان باستنباط موقف المؤلف من المسائل المتعلقة بالقرآن الكريم مسألة مسألة كما يتبع المنهج النقدي في الجانب النقدي حيث يقوم الباحثان بتفنيد وتقييم موقف المؤلف الذي سبق عرضه.

خطة البحث:

تتكون خطة البحث من تمهيد وثلاثة فصول وخاتمة:

- التمهيد: ويتم فيه التعريف بالاستشراق والمستشرقين والتعرف على المدارس الاستشراقية.
- الفصل الأول : ويتناول ما يلي:
  - المبحث الأول: التعريف بالمستشرق بلاشير ومدرسته الاستشراقية.
  - المبحث الثاني: التعريف بالكتاب ودوافع تأليفه ومنهج صاحبه فيه.
- الفصل الثاني: موقف بلاشير من القرآن، ويتناول ما يلي:
  - المبحث الأول: موقفه من نزول القرآن.
  - المبحث الثاني: موقفه من أساليبه في مراحل نزوله.
  - المبحث الثالث: موقفه من تدوينه وجمعه.
  - المبحث الرابع: موقفه من ترتيبه.
  - المبحث الخامس: موقفه من تفاسيره.
  - المبحث السادس: موقفه من علوم القرآن.
  - المبحث السابع: موقفه من ترجمته.
  - المبحث الثامن: موقفه من تأثير القرآن في الحياة الإسلامية والمجتمع الإسلامي.

- **الفصل الثالث: نقد موقف بلاشير من القرآن، ويتناول ما يلي:**
  - **المبحث الأول: نقد موقفه من نزول القرآن.**
  - **المبحث الثاني: نقد موقفه من أساليبه في مراحل نزوله..**
  - **المبحث الثالث: نقد موقفه من تدوينه وجمعه.**
  - **المبحث الرابع: نقد موقفه من ترتيبه.**
  - **المبحث الخامس: نقد موقفه من تفاسيره.**
  - **المبحث السادس: نقد موقفه من علوم القرآن.**
  - **المبحث السابع: نقد موقفه من ترجمته.**
  - **المبحث الثامن: نقد موقفه من تأثير القرآن في الحياة الإسلامية والمجتمع الإسلامي.**
- **خاتمة البحث: وتشتمل على أهم نتائج البحث.**

سائلين الله جل جلاله أن يوفقنا في هذا العمل العلمي وأن يجعله في ميزان حسناتنا وأن يجعله خدمة لكتابه الكريم.

وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

التمهيد

التعريف بالاستشراق والمستشرقين وأهم المدارس الاستشراقية

تعريف الاستشراق في اللغة:

الاستشراق orientalist كلمة لم تعرفها المعاجم العربية القديمة، وإنما هي من المصادر الصناعية التي وضعت في العصر الحديث لتعبر عن تلك الحركة الفكرية التي ظهرت في ذلك الوقت، وقد اشتقت من الشرق الذي يدل على الجهة الواقعة بين الجنوب والشمال في مقابلة الغرب والتي سميت بذلك لأنها جهة شروق الشمس.

والشرق في اللغة: الشَّمْسُ حينَ تُشْرِقُ، يُقالُ: طَلَعَت الشَّرْقُ، وَلَا يُقال: غَرَبَت الشَّرْقُ، والشَّرْقُ: إسْفارُها، والشَّرْقُ: حَيْثُ تَشْرُقُ الشمسُ يُقال: آتِيكَ كُلَّ يَوْم طَلْعَةَ شَرْقِه، والشَّرْقُ: المَشْرِقُ كَمَا فِي الصِّحاح، وجَمْعُه أشْراق، وقالَ أبُو العَبّاسِ: الشَّرْقُ: الضَّوْءُ الذِي يَدْخُل من شَق الباب"[١].

"وشَرَقَت الشمسُ تَشْرُق شُروقاً وشَرْقاً: طَلَعَتْ، وَاسْمُ الْمَوْضِعِ المَشْرِق، وَكَانَ الْقِيَاسُ المَشْرَق وَلَكِنَّهُ أَحَدُ مَا نَدَرَ مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ... وأَشْرَقَت الشمسُ إشْراقاً: أضاءت وانبسطت عَلَى الأَرض، وَقِيلَ: شرَقَت وأَشْرَقت طَلَعَتْ، وَحَكَى سِيبَوَيْهِ شَرَقت وأَشْرَقَت أَضاءت، وشَرِقَت بِالْكَسْرِ: دَنَتْ لِلْغُرُوبِ"[٢].

والسين والتاء تزادان للطلب، فالاستشراق في اللغة معناه طلب

---

(١) تاج العروس من جواهر القاموس، أبو الفيض مرتضى الزبيدي، تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الهداية- القاهرة، بدون تاريخ. ط/ ٤٩٣/٢٥.

(٢) لسان العرب، جمال الدين بن منظور، ط/٣، دار صادر- بيروت، ١٤١٤هـ، ١٧٣/١٠، ١٧٤.

الشرق، وليس المقصود طلب جهته سيرا، إنما المقصود طلب علومه ومعارفه ولغاته وآدابه وتاريخه وما يتعلق به من سائر العلوم والفنون.

واستشرق: طلب علوم الشرق ولغاتهم -مولدة عصرية- يقال لمن يعتني بذلك من علماء الفرنجة(١).

تعريف الاستشراق في الاصطلاح:

والاستشراق في الاصطلاح Orientalism معناه: حركة فكرية غربية تتجه إلى دراسة كل ما يتعلق بالشرق من معتقدات دينية وتاريخ وحضارات ولغات وآداب وفنون وعادات وتقاليد ونحو ذلك من ألوان العلوم والثقافات التي تخص بلدان الشرق.

وعرفه بعض الباحثين بأنه "علم يدرس فيه لغات الشرق وتراث وأديان شعوبها وحضارتهم وتاريخهم، وكل ما يتعلق بهم"(٢).

وعرف كذلك بأنه: "دراسة يقوم بها الغربيون لتراث الشرق بما يتعلق بتاريخه ولغاته وآدابه وعلومه"(٣).

فالاستشراق تعبير أطلقه غير الشرقيين على الدراسات المتعلقة بالشرقيين: (شعوبهم وتاريخهم وأديانهم ولغاتهم وأوضاعهم الاجتماعية وبلدانهم وسائر أراضيهم وما فيها من كنوز وخيرات وحضاراتهم وكل ما يتعلق بهم)(٤).

ويرى بعض الباحثين أن الاستشراق بكل مدارسه وفصائله هو عمل

---

(١) معجم متن اللغة، أحمد رضا، دار مكتبة الحياة- بيروت، ١٩٦٠م، ٣١١/٣.
(٢) تطور الاستشراق في دراسة الفكر العربي، عبد الجبار ناجي، دار الجاحظ – بغداد، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م، ص٢٣.
(٣) المستشرقون والدراسات القرآنية، محمد حسين الصغير، ط/ المؤسسة الجامعية- بيروت، ١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م، ص١١.
(٤) أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها التبشير-الاستشراق-الاستعمار، دراسة وتحليل وتوجيه، ط/٨، دار القلم- دمشق، عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، -١٤٢٠هـ، ص١٢٠.

مؤسسي منظم فعرفه بأنه: "مؤسسة غربية بالغة القوة، قائمة على دراسة الشرق بشتى جوانبه، مع التركيز على الجزء الإسلامي منه برؤية غربية قائمة على التفوق العرقي والثقافي بهدف سيطرة الغرب على الشرق، وتشويه الإسلام في الشرق والغرب"(١).

بل يرى د. عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني أن الاستشراق في حقيقته وفي أول نشأته كان موجها للإسلام وللعالم الإسلامي خاصة، وأنه كان هدف الغربيين من إطلاق لفظ الاستشراق بمعناه العام الذي يشمل كل الشرق والشرقيين، مسلمين أو غير مسلمين، أن يكون غطاءً للهدف الأساسي، الذي هو دراسة كل ما يتعلق بالإسلام والمسلمين لخدمة أغراض التبشير من جهة، وأغراض الاستعمار الغربي لبلدان المسلمين من جهة أخرى، ثم لإعداد الدراسات اللازمة لمحاربة الإسلام، وتحطيم الأمة الإسلامية، وتجزئتها، وتفتيت وحدتها، ثم توسعت الدراسات الاستشراقية بعد توسع الاستعمار الغربي في الشرق، فتناولت جميع ديانات الشرق وعاداته وحضاراته وجغرافيته وتقاليده ولغاته وكل ما يتعلق به(٢).

وهنا تبدو إشكالية فإن مفهوم هذه الكلمة يتغير تبعا لاختلاف المكان وتغير الزمان، فالشرق يختلف بالنسبة للياباني أو العربي أو الأمريكي أو الأوربي، كما يختلف بالنسبة للعصور القديمة والوسطى عنه بالنسبة للعصور الحديثة والمعاصرة وخاصة بعد اكتشاف الأمريكتين، فقد كانت منطقة البحر المتوسط في العصور الوسطى هي مركز الحضارات الإنسانية في العالم، وكان هذا المركز هو الذي يحدد مفهوم مصطلحي (الشرق) و(الغرب)، ثم انتقل مركز الأحداث إلى شمال وشمال غرب أوربا، ثم اتسعت

---

(١) انظر: موسوعة الرد على المذاهب الفكرية المعاصرة، مجموعة من المؤلفين، جمع وإعداد: علي بن نايف الشحود، ط/بدون، ٦٨/٢٤.
(٢) أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها، عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، ص١٢٠.

رقعة العالم بعد اكتشاف الأمريكتين وتحول مركز الثقل العالمي إليها، مما أدى إلى تغير مفهوم (الشرق) و(الغرب)، وفي عالمنا المعاصر تكون مفهوم الشرق بشكل أساسي حينما أصبحت هذه الأمم ذات الحضارات القديمة معرضة للأطماع الاستعمارية الغربية، فجاءت التسمية إذن من هذه الدول الاستعمارية باعتبار أن هذه الأمم الضعيفة تقع في الشرق بالنسبة لها، وبذلك يكون هذا المفهوم ناتجا عن ظروف وعوامل سياسية بالدرجة الأولى[١].

وقد غلب الاستشراق على تعلم الأوروبيين خصوصا والغربيين عموما علوم أهل الشرق، فالمستشرق هو ذاك الغربي الذي اجتهد في تعلم علوم الشرق، وديانات أهله وحضارتهم وتاريخهم وتراثهم بكافة أنواعه وثقافاتهم في مختلف صورها.

ولذا يقال مستشرق أي مهتم بعلوم الشرق منتسب إليها، كما يقال مستعرب أي منتم إلى العرب ملتصق بهم، وقد استخدم الألمان مصطلح الاستعراب بديلا لمصطلح الاستشراق.

وعرف بأنه عالم متمكن من المعارف الخاصة بالشرق ولغاته وآدابه[٢].

فالمستشرقون Oriantalists: هم أولئك النفر من الباحثين الغربيين الذين تخصصوا في دراسة لغات الشرق بعامة، وآدبه، وعقائده، وبخاصة الذين تخصصوا في دراسة اللغة العربية، والدين الإسلامي قرآنا، وسنة، وتشريعا، وحضارة، وتاريخا، وفنونا، وآدبا، وعادات، وتقاليد ... إلخ[٣].

---

(١) انظر: المستشرقون والتاريخ الإسلامي، علي حسني الخربوطلي، ص١١-١٣.
(٢) معجم متن اللغة، أحمد رضا، (٣١١/٣.
(٣) الاستشراق والغارة على العالم الإسلامي، محمد عبدالله الشرقاوي، ط/ دار الهداية للطباعة والنشر والتوزيع-القاهرة، ص٦.

والاستشراق موضوع واسع ومتشعّب يتناول كل ما له علاقة بالشرق من حيث اللغة والأدب والتاريخ والدين والحضارة وما إلى ذلك.

ويقسم الشرق جغرافيا إلى ثلاثة اقسام: الأدنى – والأوسط – والأقصى، ولكن بالرغم من أنه يدخل ضمن مصطلح الشرق أو الاستشراق أية منطقة شرقية، لكن هذا المصطلح في الحقيقة يعني بصفة خاصة ما له علاقة بالدراسات العربية أو اللغات التي تؤثر فيها العربية كالفارسية والتركية، حتى بدأ بعضهم يدعو دراسة اللغة العربية وشئون العرب بالدراسات العربية، ويدعو المستشرقين المتخصصين بالعربية بالمستعربين[١].

نشأة الاستشراق:

اختلف العلماء في نشأة الحركة الاستشراقية وتحديد بداية ظهورها إلى أقوال كثيرة، فبينما نحا البعض إلى إرجاعها للحروب الصليبية أو إلى نقل الأوربيين لتراث المسلمين في الأندلس إلى بقية القارة الأوربية النصرانية، نجد كثيرين قد اعتبروا أن بدايتها كانت في العصر الحديث، حيث تتابعت جحافل القوى الاستعمارية إلى البلدان الشرقية من الشمال الأفريقي والشرق الأوسط حتى الشرق الأقصى، وقد صاحب الجيوش المستعمرة لهذه البلدان التي كانت تعاني من الفقر والضعف والتخلف رغم ثرائها بغزارة التاريخ، وخصوبة التراث اللغوي والأدبي والعلمي والثقافي بشكل عام جحافل من العلماء في كل علم وفن، يقتحمون كل ميدان محاولين التنقيب في تراث الشرق الثري، وكشف أسراره، بالإضافة إلى دراسة عادات الشرقيين وتقاليدهم ومعتقداتهم على تنوع ثقافاتهم وحضاراتهم القديمة.

ولا أدل على ذلك من تلك الثلة من العلماء الفرنسيين الذين جاءوا

(١) الاستشراق ومناهجه في الدراسات الإسلامية، سعدون السرموك، ط/ دار المناهج للنشر والتوزيع- عمان، ١٤٣١هـ، ص١٣.

مصاحبين للحملة الفرنسية على مصر، والتي راحت تبحث كل كبيرة وصغيرة تتعلق بالتاريخ المصري على اختلاف مراحله وحضاراته حتى وقت مجيء الحملة، ودونوا كل ما شاهدوه واكتشفوه في هذه الموسوعة الضخمة التي حملت عنوانا شفافا وهو "وصف مصر" وصفا دقيقا جريئا لكنه ليس عشوائيا ولا بريئا.

ولكن ينبغي أن نفرق بين أمرين مهمين؛ بين اهتمام الغربيين بالشرق وعلومه وهو أمر قديم جدا وطبيعي، فما من شك أن الحضارات شرقيها وغربيها يستفيد بعضها من بعض ويستمد بعضها من بعض، حتى وإن قصدنا اهتمام العالم المسيحي على وجه التحديد بدراسة الإسلام وعلومه، فهذا أيضا لا يعدو أن يكون محاولات فردية وجهودا غير منظمة، والذي يمكن إرجاعه إلى الحملات الصليبية أو إلى مرحلة سقوط الأندلس، أو إلى ما قبل ذلك، وبين العمل العلمي المنظم الذي أصبح علما له أصوله وقواعده ورجالاته وتمويله وأهدافه ومناهجه، وهذا هو الذي يسمى الآن بالاستشراق والذي نشأ مع الحركة الاستعمارية الغربية على العالم الإسلامي في العصر الحديث.

ويوضح بعض الباحثين تطور مفهوم الاستشراق من مرحلة إلى أخرى فيقول: "يراد بالاستشراق اليوم دراسة الغربيين لتاريخ الشرق وأممه ولغاته وآدابه وعلومه وعاداته ومعتقداته وأساطيره، ولكنه في العصور الوسيطة كان يقصد به دراسة العبرية لصلتها بالدين، ودراسة العربية لصلتها بالعلم، إذا بينما كان الشرق من أدناه إلى أقصاه مغمورا بما تشعه منائر بغداد والقاهرة من أضواء المدنية والعلم، كان الغرب من بحره إلى محيطه

يعمه في غياهب من الجهل الكثيف والبربرية الجموح"(١).

وينبغي التفرقة بين الاستفادة العلمية ونقل العلوم من الشرق إلى الغرب الذي كان في ما يعرف بالعصور الوسطى وبين حركة الاستشراق، فالعلم بطبيعته عالمي النزعة وليس حكرا على أمة بعينها، فلا يسوغ مثلا أن نسمي نقل العلوم الآن من الغرب أنه حركة استغراب، ما لم يكن ذلك ممزوجا بنقل الأفكار والعادات والتقاليد الخاصة بالغرب، وهكذا فالاستشراق هو دراسة التاريخ والأفكار والعقائد واللغات والآداب والعادات والتقاليد الخاصة بالشرق والتي تعد مميزة له عن العالم الغربي.

ولذلك فقد ذهب الدكتور إبراهيم مدكور إلى أن الاستشراق بالمعنى العلمي الكامل لم يبدأ قبل منتصف القرن التاسع عشر الميلادي، إذ إننا لا نستطيع أن نتحدث عن دراسات إسلامية بالمعنى الكامل سابقة على ذلك التاريخ، وكان سبب ذلك أن الغربيين في اتصالهم بالشرق شغلوا أولا بالنواحي السياسية والاقتصادية، ولم يتجهوا إلى النواحي العلمية والثقافية إلا مؤخرا(٢).

والذي نميل إليه أن أول جهد علمي استشراقي جدير بأن يعد هو البداية الحقيقية لحركة الاستشراق هو تلك الجهود التي قام بها علماء الحملة الفرنسية على مصر في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر الميلاديين.

ولا شك أنه كان من أهم الميادين التي أظهر المستشرقون عنايتهم بها وصرفوا اهتمامهم إليها في جميع مراحل الحركة الاستشراقية هو الإسلام،

---

(١) تاريخ الأدب العربي، أحمد حسن الزيات، ط/ دار نهضة مصر-القاهرة، بدون تاريخ، ص٥١٢.

(٢) في الفلسفة الإسلامية منهج وتطبيقه، إبراهيم مدكور، ط/٢، دار المعارف-القاهرة، ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م ص٢٥.

ذلك الدين الذي يمثل قوة عجيبة وروحا خفية تسري في جسد أكبر مساحة من الشرق وكان لها أكبر الأثر في معتقدات معتنقيه من أبناء الشرق، وأفكارهم، وعاداتهم، وتقاليدهم، وثقافتهم، وامتزجت روحه بأرواحهم، ولازمتهم عبر مراحل التاريخ المختلفة منذ ظهوره، حتى اصطبغت حياتهم كلها بلونه، فأكب هؤلاء المستشرقون على دراسته ليس باعتباره دينا فحسب، بل باعتباره أيضا ظاهرة حضارية فريدة في سرعة نفاذها إلى القلوب وقوة تأثيرها على المجتمعات.

إن الاستشراق اليوم علم له كيانه ومناهجه ومدارسه وفلسفته ودراساته ومؤلفاته وأغراضه وأتباعه ومعاهده ومؤتمراته، وهو عمل منظم له أهدافه ووسائله وأساليبه وتأثيراته السياسية والاقتصادية والمعرفية والثقافية على العالم كله شرقه وغربه.

وكان لابد لهم من دراسة كل ما يتعلق بالإسلام بما في ذلك مصادره المتمثلة في القرآن الكريم والسنة المطهرة، وشخصية الرسول صلى الله عليه وسلم نفسه، وسيرته وظروف نشأته، وعناصر دعوته، كما عنوا بدراسة التاريخ الإسلامي دراسة عميقة استخدمت فيها مناهج عدة بحسب اختلاف المدارس الاستشراقية التي ينتمي إليها كل مستشرق، وقامت لأجل هذا الهدف حركة ترجمة قوية لكل ما وقع تحت أيديهم من تراث المسلمين، وقد عنوا بترجمة القرآن الكريم، وكثير من كتب التفسير، والحديث، والفقه، والسيرة النبوية، والتاريخ الإسلامي، وكذلك كتب العقائد والفرق، إلى جانب كتب اللغة والأدب العربي، وعنوا بتعلم اللغة العربية، والتبحر في علومها وآدابها، كما عكفوا على دراسة الآثار الإسلامية، ودراسة المجتمعات الإسلامية دراسة نفسية اجتماعية.

المستشرقون والقرآن:

وقد كان للمستشرقين اهتمام خاص بالقرآن الكريم وترجمته ودراسة تفسيره والعلوم المتعلقة به، ومن أهم مظاهر عناية المستشرقين بالقرآن الكريم ما يلي:

١- نشر أهم الكتب المؤلفة في علومه، ككتاب التيسير في القراءات لأبي عمر الداني، وكتاب المقنع في رسم مصاحف الأمصار له أيضا، وكتب مختصر الشواذ لابن خالويه.
٢- البحث في تاريخ القرآن وأدواره التي مرت عليه وبيان مكيه ومدنيه وقراءاته وكتابته وتدوينه.
٣- ترجمة القرآن إلى اللغات الغربية المختلفة ترجمة حرفية أو تفسيرية.
٤- الاهتمام بالعلوم المتعلقة بالقرآن كبلاغته وإعجازه ونحو ذلك[١].

وقد كان وراء اهتمامهم بدراسة القرآن على هذا النحو دوافع عدة، نذكر منها:

١- أنه آخر الكتب السماوية والمهيمن عليها، وقد ذكر أن التوراة والإنجيل كتابان سماويان في الأصل إلا أنهما تعرضا للتحريف، واشتمل على بعض ما ورد فيهما من القصص والعبر متفقا معهما أحيانا ومصححا لهما أحيانا أخرى، لذلك جهد المستشرقون في إثبات بشرية القرآن وأنه مستمد منهما.
٢- إنكار القرآن للأسس العقيدة الثلاثة الكبرى في النصرانية وهي التثليث والصلب والفداء.
٣- محاولة إخضاع القرآن للنقد كأي كتاب بشري آخر مجردين إياه من قدسيته منكرين ربانية مصدره.
٤- ما أحدثه القرآن من تغيير شامل في المجتمع الإسلامي وما أضافه

(١) المستشرقون والدراسات القرآنية، محمد حسين الصغير، ص٧.

للحضارة الإنسانية من معارف وأبعاد فكرية، وما قدمه للثقافة الإنسانية من تطوير دفع هؤلاء المستشرقين إلى الحدب على دراسته.

٥- ثراء القرآن بالقضايا والأحكام والمعارف التي استثارت همم المستشرقين وبواعثهم على دراستها ومناقشتها بغض النظر عن مواقفهم منها(١).

أهداف الاستشراق:

ولقد كان لهذه الدراسات الاستشراقية دوافع وبواعث حركتها، وأهداف عملت على تحقيقها، أهمها:

١- خدمة القوى الاستعمارية: وذلك بإمدادها بالمعلومات اللازمة لتحقيق سيطرة هذه القوى على العالم الإسلامي عسكريا وسياسيا واقتصاديا وإخضاعه لها، كما حدث مثلا بالنسبة للحملة الفرنسية التي اصطحبت معها إلى مصر مجموعة من العلماء في مختلف التخصصات، فأمدوها بوصف دقيق للحياة في مصر والمجتمع المصري بل والتاريخ والآثار وكافة المجالات، وفي كثير من الأحيان كان المستشرقون ملحقين بأجهزة الاستخبارات لسبر غور حالة المسلمين، وتقديم النصائح لما ينبغي أن يفعلوه لمقاومة حركات البعث الإسلامي وحركات المقاومة والجهاد ضد المحتلين الغاصبين لأراضي المسلمين وثرواتهم، والتصدي للحركات الإسلامية التي تحافظ على الهوية الإسلامية، وتعمل على تحقيق أهداف تتعارض

(١) انظر: المستشرقون والقرآن الكريم، محمد أمين حسين بني عامر، ط/١ دار الأمل للنشر-إربد، الأردن، ٢٠٠٤م، ص١٢٢ -١٢٥. مفتريات على الإسلام، أحمد محمد جمال، ط/٣ مطبوعات الشعب، ١٩٧٥م، ص١٧. الإسلام في قفص الاتهام، شوقي أبو خليل، ط/٤ دار الفكر، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م، ص١١.

مع سياسات القوى الاستعمارية، ولا أدل على ذلك من قيام بعض المستشرقين برصد الحركات الإسلامية المعاصرة، ودراسة أحوالها وأوضاعها ليمكنوا صناع القرار في البلاد الغربية من مكافحتها، وبذل كافة الوسائل لإطفاء نورها، وهناك عدد من المستشرقين مثل: "هاملتون جيب"، و"ميشيل ريتشارد"، و"ألفريد سميث" وغيرهم كتبوا عدة دراسات عن هذه الحركات، ومن أحدث الدراسات عن هذه الحركات تلك التي أعدها المستشرق الأمريكي جون سبوزيتو عن ظاهرة الصحوة الإسلامية في العالم الإسلامي، وهو على صلة وثيقة بالبيت الأبيض الأمريكي، وفي فرنسا كان "بلاشير" و"ماسينيون" وهما شيخا المستشرقين الفرنسيين في وقتهما يعملان في وزارة الخارجية الفرنسية، كخبيرين في شؤون العرب والمسلمين.

٢- تغريب العالم الإسلامي: وذلك بفرض السيطرة الفكرية والثقافية الغربية عليه من أجل تحقيق تبعيته للغرب فكريا وثقافيا وحضاريا، ومن ثم سياسيا، وقد استلزم ذلك اتخاذ وسائل عدة مثل خلق التخاذل الروحي، وإيجاد الشعور بالنقص في نفوس المسلمين والشرقيين عامة، بالطعن في العقلية الشرقية وقابليتها للإبداع والفكر المنطقي واستسلامها للخرافة، وكذلك بالطعن في لغاته وبخاصة اللغة العربية وآدابها، وحملهم من هذا الطريق على الرضا والخضوع للتوجيهات الغربية، وإذابة شخصيته الإسلامية عن طريق غسل دماغه شيئاً فشيئاً بأسلوب ماكر يعتمد على إخفاء النوايا الحقيقية والظهور بمظهر برئ لطيف وعدم الاحتكاك مباشرة المسلمين أو استفزاز عواطفهم، وإشعار المسلمين بالتخلف والدونية وأنهم لا سبيل لتحقيق نهضتهم وتقدمهم إلا بتقليد الغرب في كل شيء، واتخاذ المدنية

الغربية نموذجا يحتذى به في كل كبيرة وصغيرة، ولقد عملت الكنيسة الصليبية مع العلمانيين والصهيونيين في سبيل تحقيق ذلك الهدف الذي ذكرناه فمهدوا أولاً له بإنشاء المدارس والكليات العلمانية في طول العالم الإسلامي وعرضه، وأفسدوا مناهج التعليم في بقية مدارس العالم الإسلامي بل أشرفوا هم بأنفسهم على التخطيط لها ووضعها موضع التنفيذ، ثم التفتوا إلى طبقة المفكرين والمثقفين فأغروهم بدراسات المستشرقين الذين كان منهم نفر يشتغلون بالآداب العربية والعلوم الإسلامية أو يستخدمون غيرهم في سبيل ذلك، ثم يرمون كلهم مما يكتبون إلى أن يوازنوا بين الآداب العربية والآداب الأجنبية، أو بين العلوم الإسلامية والعلوم الغربية ليخرجوا دائما بتفضيل الآداب الغربية على الآداب العربية والإسلامية، وبالتالي إلى إبراز نواحي النشاط الثقافي في الغرب وتفضيلها على أمثالها في تاريخ العرب والإسلام، وما غايتهم من ذلك إلا بث التخاذل الروحي والشعور بالنقص في نفوس الشرقيين وحملهم من هذا الطريق على الرضا بالخضوع للمدنية المادية الغربية.

٣- التبشير: ويقصد به خدمة الأهداف الكنسية في محاولات تنصير المسلمين، أو على الأقل صرف المسلمين عن دينهم وإضعاف روح الاعتزاز بالإسلام في نفوسهم: وذلك بالتشكيك في عقيدة الإسلام ومصادره الأساسية المتمثلة في القرآن الكريم والسنة النبوية بالطعن فيهما، وفي شخصية الرسول –صلى الله عليه وسلم–، وفي الوحي، وفي الصحابة، وفي التاريخ الإسلامي، وفي الفقه الإسلامي، وادعاء أنه مكتسب من العادات الجاهلية تارة، وتارة أخرى يدعون أنه مستقى من القانون الروماني، وثالثة يدعون أنه مقتبس من الشريعة

اليهودية، إلى آخر هذه الافتراءات والأكاذيب، ولا أدل على الهدف التبشيري للاستشراق من أن كثيرا من أولئك المستشرقين كانوا أساسا من القساوسة والرهبان والمبشرين الغربيين، وقد أيقن رجال الكنيسة الصليبية والمستعمرون الأوروبيون أن بقاء القرآن مصدر قوة وتوجيه للمسلمين فيه الحكم الصارم بفشل جميع جهودهم ونشاطاتهم التنصيرية وبنهاية جميع مطامحهم وأطماعهم الاستعمارية، وذلك مثل ما قام به المستشرق المُنصِّر القس صموئيل زويمر في معهده الذي أنشأه باسمه من قبل المؤتمر التَّنفيذي ليكون مركزاً للأبحاث مهمته إعداد الأبحاث، وتدريب العاملين في صفوف المسلمين لتعزيز قضية تنصير المسلمين، وكذلك المستشرق البريطاني وليم موير، ويشهد على ذلك كتابه "شهادة القرآن على الكتب اليهودية والمسيحية" فهو كتاب تنصيري في المقام الأول.

٤- التصدي للدعوة الإسلامية والمد الإسلامي ومحاولة إيقافه: باعتباره في نظرهم يمثل خطرا داهما على العالم الغربي، لقدرة الإسلام على غزو القلوب وإقناع العقول وحل المشكلات الحياتية المختلفة بمنهجه الشامل الكامل، وذلك بالتشويش على الدعوة الإسلامية؛ لكسب مواقع جديدة من أرض المسلمين، فلما عجز المبشرون عن بلوغ أهدافهم حاول قادتهم من المستشرقين أن يشوشوا على دعوة الإسلام بإلقاء الأباطيل والمفتريات في ساحة شريعته الغراء، خصوصا بعد أن انتشر الإلحاد في أوربا وأمريكا، بعد أن كشف العلم الحديث للنصارى ما في دينهم من أمور لا يقبلها العقل، كالتثليث الذي يجعل الإله الواحد ثلاثة: أب وابن وروح قدس، وغير ذلك من الأسرار الكنسية التي يستحيل على العقل فهمها والاقتناع بها، فخشي المبشرون

الصليبيون أن يطلّ الإسلام بوجهه المُشرق على أوربا وأمريكا؛ فيجد قلوبا مهيأة له، وعقولا متجاوبة معه؛ فشجع رجال الكنيسة حركة الاستشراق، وحمى المستعمرون هذه الحركة؛ فكثر عدد المستشرقين الذين يتصلون اتصالا مباشرا بالكنيسة ليشوشوا على الدعوة الإسلامية لإضعاف سلطان الدين على نفوس المسلمين، فكان الهدف الاستراتيجي من حملة التشويه ضد الإسلام هو الحيلولة بين أوروبا وبين قبول الإسلام بعد أن عجزت عن القضاء عليه من خلال الحروب الصليبية.

٥- خدمة الأهداف الصهيونية: بمحاولة إثبات فضل اليهودية على الإسلام؛ وذلك بادعاء أن اليهودية في نظرهم هي مصدر الإسلام الأول، وذلك لأسباب سياسية تتصل بخدمة الصهيونية فكرةً أولا، ثم دولةً ثانيا، فممَّا ينبغي التوقف عنده والتأكيد عليه أنَّ نشاط المستشرقين والخبراء الأمريكيين المعنيين بشؤون الشرق الأوسط يشكل جزءًا رئيساً من نظام التخطيط للعمل الإسرائيلي والأمريكي في المنطقة العربية، وهذا ينبهنا إلى حقيقة مهمة، وهي أنَّ الاستشراق يقوم في عصرنا الراهن على مخطط تحدده المصالح الأمريكية والصهيونية في الشرق الأوسط، كما لعب الاستشراق الأوربي والاستعمار الإنجليزي من قبل دورا بارزا في خدمة الأهداف الصهيونية بإنشاء صندوق اكتشاف فلسطين، وإعلاء شأن اليهود مع التقليل من شأن العرب المسلمين، والذي سهَّل للصهيونية تحقيق أهدافها من خلال الاستشراق وجود عدد كبير من اليهود في المدارس الاستشراقية الأوربية والأمريكية، ومن أكبر مستشرقيها مثل: جولد تسهير، وشاخت، وكارل بروكلمان، ولويس ماسينيون، ومكسيم

ردونسون، ومرجليوث، وبرنارد لويس.

٦- الحيلولة دون قيام وحدة إسلامية: فبعد إسقاط الخلافة الإسلامية في تركيا وبث روح العصبية القومية أو العصبيات المحلية والوطنية، نبَّش المستشرقون خاصة في النصف الأول من القرن العشرين في الحضارات الجاهلية القديمة، وإحياء معارفها لسلخ المسلمين من دينهم، من ذلك بعث الفرعونية في مصر، والفينيقية في سوريا، والآشورية في العراق، والفارسية في إيران، والقومية الطورانية في تركيا، أمَّا الجزيرة العربية فلقد بحثوا في آثار السابقين، وأسموا دراساتهم "التاريخ الحضاري للعرب قبل الإسلام"، بالإضافة إلى إحياء النعرات القبلية، والعصبيات المذهبية، والنزعات الطائفية والعقائدية، وإثارة الخلافات، لتفريق وحدة المسلمين، وإضعاف روح الإخاء بين المسلمين، وإثارة اللهجات العامية وذلك بالتشكيك في اللغة العربية ومصادرها،وذلك ليطفئوا نور الإسلام، وليقطعوا صلة الأمة الإسلامية بماضيها الحقيقي وسر وحدتها وقوتها وهو الإسلام، من أجل إجهاض كل محاولة لاستعادة الوحدة الإسلامية من جديد.

٧- الدافع العلمي: ومع ذلك فلا ننكر أن عددا من المستشرقين كان وراء اشتغالهم بعلوم الشرق وآدابه وحضاراته وعقائده دافع علمي، وكان هدفهم هو العلم بهذا العالم الساحر بالنسبة لهم المليء بالأسرار والأمور المثيرة للفضول العلمي، وأن بعضهم قد اتجه إلى البحث والتمحيص لمعرفة الحقيقة خالصة، وقد توصل بعض هؤلاء إلى صدق الإسلام واعتنقه، نذكر منهم على سبيل المثال: توماس أرنولد الذي أنصف المسلمين في كتابه "الدعوة إلى الإسلام"، والمستشرق الفرنسي رينيه الذي أسلم وعاش في الجزائر وله كتاب "أشعة خاصة

بنور الإسلام"، مات في فرنسا لكنه دفن في الجزائر، وغيرهم كثيرون أمثال روجيه جارودي، وليوبولد فاس الذي عرف بعد إسلامه بمحمد أسد، ومارجريت ماركوس التي تسمت بعد إسلامها مريم جميلة، فهؤلاء وأمثالهم حينما اتبعوا المنهج العلمي الصحيح، والتزموا بالموضوعية في دراساتهم الاستشراقية، وتخلوا عن التعصب ضد الإسلام، اهتدوا إلى الحق فاعتنق بعضهم الإسلام، وبقى بعض آخر على عقيدته لكنه أنصف في الحكم على الإسلام وعقيدته وشريعته ومصادره وتاريخه، وإسهامات المسلمين العلمية والفكرية، وعطائهم الحضاري، مثل هنري دي كاستري، ودنيس ماسون(١).

مدارس الاستشراق:

للباحثين المهتمين برصد حركة الاستشراق والمستشرقين نوعان من التصنيف للمدارس الاستشراقية، فبينما يعتمد التصنيف الأول على اختلاف جنسيات المستشرقين، نجد تصنيفا آخر لمدارس الاستشراق يقوم على أساس التوجهات العقدية لكل منهم، وسنعرض كلا الاتجاهين في التصنيف:

الاتجاه الأول: التصنيف على أساس الجنسية:

(١) انظر: الاستشراق .. تعريفه . مدارسه . آثاره، محمد فاروق النبهان، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (إيسيسكو)-الرباط، المملكة المغربية، ١٤٣٣هـ-٢٠١٢م، ص١٣-٢٠. الاستشراق قراءة نقدية، صلاح الجابري، ط/١ دار الأوائل للنشر والتوزيع والخدمات الطباعية - دمشق، ١٤٣٠ه، ص١٩، الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، محمود حمدي زقزوق، ط/ دار المعارف-القاهرة، ١٩٧٧م، ص٧٣-٧٥. الاستشراق والمستشرقون ما لهم وما عليهم، مصطفى السباعي، ط/ دار الوراق للنشر والتوزيع، ص٢٠-٢٤. الاستشراق ومناهجه في الدراسات الإسلامية، سعدون السرموك، ص٢٢-٣٠. المستشرقون والتاريخ الإسلامي، علي حسني الخربوطلي، ط/ الهيئة المصرية العامة للكتاب-القاهرة، ١٩٨٨م، ص ٢٧-٣٥. المستشرقون في الميزان، أبو مجاهد عبد الفتاح عبد الرحيم، مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، السنة السابعة، العدد الأول، رجب ١٣٩٤هـ. ص ١٤٥، ١٤٦.

المدرسة الإيطالية:

تعد إيطاليا مهد الدراسات العربية والإسلامية في أوروبا، فقد كان الباباوات هم الذين وجهوا إلى دراسة اللغة العربية، ومن هنا صدر القرار البابوي بإنشاء ستة كراسٍ لتعليم اللغة العربية في باريس ونابولي وسالونيكا وغيرها، وقد تعاون مجموعة من نصارى الشام مع الكنيسة الكاثوليكية لنشر الديانة الكاثوليكية في المشرق، وقد بدأ هذا التعاون باتحاد الكنيستين المارونية والكاثوليكية عام ١٥٧٥م، وقام المارونيون بترجمة العديد من كتب اللاهوت إلى اللغة العربية، واستمر اهتمام إيطاليا بالعالم الإسلامي وظهر مستشرقون في المجالات المختلفة ومن هؤلاء على سبيل المثال المستشرق الأمير كايتياني الذي أصدر مؤلفه الكبير(حوليات الإسلامي)، ومنهم أيضا المستشرق كارلو نيللو الذي درّس الفلك والأدب في جامعة القاهرة.

المدرسة الهولندية:

إن الاستشراق الهولندي لا يختلف عن الاستشراق الأوروبي في أنه انطلق مدفوعاً بالروح التنصيرية، لاسيما وأن هولندا كانت تدور في الفلك البابوي الكاثوليكي، وقد اهتم المستشرقون الهولنديون باللغة العربية ومعاجمها كما اهتموا بتحقيق النصوص العربية، ومما يميز الاستشراق الهولندي وجود مؤسسة برل التي تولت طباعة الموسوعة الإسلامية ونشرها في طبعتيها الأولى والثانية، كما تقوم هذه المؤسسة بطباعة كثير من الكتب حول الإسلام والمسلمين، ومن أبرز المستشرقين الهولنديين سنوكهورخرونيه الذي ادعى الإسلام وتسمى باسم الحاج عبد الغفار، وذهب إلى مكة المكرمة ومكث ستة أشهر حتى طردته السلطات من هناك، فرحل إلى إندونيسيا ليعمل مع السلطات الهولندية المحتلة لتدعيم الاحتلال في ذلك البلد الإسلامي، ومن أعلام الاستشراق الهولندي أيضا دي خويه (ت١٩٠٩م) وفنسنك صاحب

المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي، وله كتاب في العقيدة الإسلامية، وكذلك المستشرق منسنك والمستشرق دوزي.

المدرسة الفرنسية:

تعد المدرسة الفرنسية من أهم المدارس الاستشراقية وبخاصة منذ إنشاء مدرسة اللغات الشرقية الحية سنة ١٧٩٥م والتي رأسها المستشرق المشهور سلفستر دي ساسي، وكان هذا المستشرق يعد عميد الاستشراق الأوروبي في النصف الأول من القرن التاسع عشر دون منافس، وقد نشط الاستشراق الفرنسي إبان الحملة الفرنسية على مصر وبعدها، فقد اصطحب نابليون معه عدداً كبيراً من العلماء في المجالات المختلفة ليحدث هزة انبهار لدى المسلمين وعلمائهم بالحضارة الغربية، وليزيد في دراسة أوضاع المجتمعات الإسلامية، وقد صدر عن هذه الحملة كتاباً ضخما بعنوان (وصف مصر) كما إن نفوذ الاستشراق الفرنسي استمر بعد وصول محمد علي سرششمة إلى السلطة حيث بدأت البعثات العلمية في عهده وكانت تحت إشراف المستشرق الفرنسي جومار، وقد أرسلت تركيا وإيران والمغرب الأقصى بعثات مماثلة، ومن أهم أعلام هذه المدرسة سيلفستر دي ساسي، ولويس ماسينيون، وريجيسبلاشير الذي هو موضوعنا في هذا البحث، ومكسيم رودنسون.

المدرسة الإنجليزية:

أنشئت أول أقسام اللغة العربية في الجامعات البريطانية في عامي ١٦٣٢م و١٦٣٦م في جامعتي كمبريدج وأكسفورد على التوالي، وكانت الدراسات العربية الإسلامية يغلب عليها الطابع الفردي، ولكن في هذه الأثناء كانت شركة الهند الشرقية تعمل جاهدة على إكمال احتلالها للهند ثم تسليمها للحكومة البريطانية، وقد قامت الشركة بإنشاء مراكز استشراقية في الهند

لتدريب موظفين يستطيعون التعامل مع أهل البلاد. وأنشئت كذلك جمعيات استشراقية مثل الجمعية البنقالية في أواخر القرن التاسع عشر، وقد انتشرت المراكز الاستشراقية في بريطانيا وظلت العاصمة لندن خالية من مثل هذا المركز حتى صرح اللورد كيرزن في إحدى جلسات البرلمان الإنجليزي بضرورة إنشاء مثل هذا المركز وانه من المكونات الضرورية للإمبراطورية، وتأسست مدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية عام ١٩١٦م، وانتقل إليه بعض المستشرقين الكبار من أمثال توماس آرنولد والفرد جيوم وغيرهما، واستمرت المدرسة في النمو والازدهار حتى أصبحت المركز الاستشراقي الأول في بريطانيا، بل تنافس أكبر المراكز الاستشراقية في العالم، ومن أهم أعلامها جورج سيل، ومرجليوث، وسير هاملتون جيب.

المدرسة الأمريكية:

نشأ الاستشراق في أوائل القرن التاسع عشر يغلب عليه الطابع الديني، ولكن مع عدم إغفال الأطماع السياسية، فكيف يكون لبريطانيا إمبراطورية لا تغيب عنها الشمس ولا يكون لأمريكا اهتمامات إمبريالية، واشترك الهدفان وتأسست الجمعية الشرقية عام ١٨٤٠م وأرسلت باحثيها إلى العالم العربي الإسلامي، وحرصت بعض الجامعات الأمريكية أن تنال نصيبها من المخطوطات الإسلامية فاشترت جامعة برنستون كمية من المخطوطات حتى أصبحت تضم ثاني أكبر مجموعة مخطوطات إسلامية، ونشطت البعثات التنصيرية في بلاد الشام فأسست المدارس والمعاهد العلمية، وفي أواخر القرن التاسع عشر وفي عام ١٨٨٩م (١٣٠٧هـ) وصلت إلى البصرة طلائع البعثة العربية (سميت كذلك تمويها) وكانت برئاسة المنصّر المشهور صموئيل زويمر، واستمرت هذه البعثة حتى عام ١٣٩٣م-١٩٧٣م، ومن أشهر أعلامها كورنيليوسفاندايك، وماكدونالد، وجورج سارتون.

المدرسة الألمانية:

اهتم الباحثون الألمان بالدراسات العربية الإسلامية منذ عهد مبكر فقد ثبت أن مارتن لوثر كان من الذين تأثروا بالفكر الإسلامي حينما تمرد على الكنيسة الكاثوليكية في روما، ولكن موقف لوثر كان عدائيا جداً من الإسلام وبخاصة الدولة العثمانية، وقد تميز المستشرقون الألمان بالجدية في البحث حتى اصطبغت الدراسات الإسلامية في أوروبا في وقت من الأوقات بالصبغة الألمانية، وما زال الاستشراق الألماني مزدهراً في العديد من الجامعات، ومن أعلام الاستشراق الألماني يوهان جاكوب رايسكه، ويوليوس فيلهاوزن، وتيودور نولدكه، وكارل بروكلمان، وآن ماري شميل.

المدرسة الأسبانية:

نشأ الاستشراق الأسباني في أحضان حركة عدائية لكل ما هو عربي ومسلم، وكان هدفها التحقير والانتقام والتشويه، وقد اختلط الدافع الديني الحاقد بدافع استعماري سياسي حينما بدأت حركات الاحتلال الأوروبي للعالم الإسلامي وطمعت إسبانيا في المناطق المجاورة لها فجندت مستشرقيها لإعداد الدراسات لمعرفة مواصفات السكان وطبائعهم وتجارتهم وزراعتهم، وكذلك معرفة اللغات واللهجات المحلية، وقد أنشأت الحكومة الأسبانية العديد من المراكز لتعليم العربية العامية والمغربية، وقد تجاوزت خمسين مدرسة، وما تزال إسبانيا تحتفظ بالكثير من المخطوطات العربية في مكتباتها الكبرى كمكتبة الإسكوروبال ومكتبة مدريد الوطنية، ومكتبة جمعية الأبحاث الوطنية، ومن أعلام الاستشراق الأسباني آسين بلاثيوس، وباريديس، وإيميليو جارثيا جوميز، وبوش فيلا.

المدرسة الروسية:

كان الاستشراق قوياً في روسيا منذ عهد بعيد حيث تعود الصلات

بين روسيا والعالم الإسلامي إلى زمن الدولة العباسية، حيث تبادلت الدولة الإسلامية السفارات مع روسيا، ولمّا ضمت روسيا إليها بعض المناطق الإسلامية ازداد الاهتمام بالإسلام والعالم الإسلامي، وقد أفادت روسيا من الدراسات العربية والإسلامية في أوروبا وبخاصة في فرنسا حيث أوفدت روسيا بعض الباحثين للدراسة في مدرسة اللغات الشرقية الحية في باريس، وقد قوي الاهتمام بالاستشراق في روسيا في بداية القرن التاسع عشر حينما أنشأت بعض الجامعات الروسية كراسي للغة العربية والإسلام ومن هذه الجامعات جامعة قازان وجامعة موسكو وجامعة بطرسبرج وكلية لازاريف وغيرها، ومن أعلام الاستشراق الروسي ف.ف. بارتولد، وكراتشكوفسكي، وإيفانوف[1].

<u>الاتجاه الثاني: التصنيف على أساس الاتجاه العقدي:</u>

١- المدرسة النصرانية: وهي تنقسم إلى فرعين:

أ- الكاثوليكية.

ب- البروتستانتية.

وهذان الفرعان يلتقيان في الأعمال والأهداف، وإن اختلفا في بعض الآراء المذهبية.

٢- المدرسة اليهودية:

وهذه المدرسة ذات أهداف خاصة تخدم مخططات اليهودية العالمية، مهما لبست في البيئات التي تكون فيها من ألبسة النفاق تمالئ فيها هذه البيئات، ومهما سترت وجهها الحقيقي بأقنعة مزورة.

٣- المدرسة الإلحادية العامة:

---

(١) انظر: الاستشراق .. تعريفه . مدارسه . آثاره، محمد فاروق النبهان، ص٢١-٣٣. الاستشراق ومناهجه في الدراسات الإسلامية، سعدون السرموك، ص١٠٣-١٤٦.

والمنتمون إلى هذه المدرسة هم المستشرقون الملحدون في الغرب، وتتلخص أهدافهم بنشر الفكر الإلحادي، وإقامة مفاهيم الحياة على المادية التي تنكر وجود الله عز وجل، وهؤلاء موزعون في مختلف المذاهب الاجتماعية والسياسية والاقتصادية.

٤- المدرسة الإلحادية الشيوعية:

والمنتمون إلى هذه المدرسة هم المستشرقون الشيوعيون، وتتلخص أهدافهم بنشر الإلحاد والشيوعية معاً، واستدراج شعوب الأمة الإسلامية إليهما[١].

ومن ذلك يتضح لنا أن المستشرق ريجيسبلاشير ينتمي إلى المدرسة الفرنسية بحسب التصنيف القائم على الجنسية، وبحسب التصنيف القائم على الاتجاه العقدي فهو ينتمي إلى المدرسة النصرانية الكاثوليكية، وسيظهر مدى تأثير انتمائه الأخير على كتاباته فيما يتعلق بالإسلام عموما وبالقرآن الكريم خصوصا من خلال هذا البحث.

(١) أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها، عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني ص١٢٦، ١٢٧.

الفصل الأول

التعريف بالمستشرق بلاشير وكتابه

أولا: التعريف بالمستشرق بلاشير[1] ومدرسته الاستشراقية.

حياته:

ريجيس. ل. بلاشير Regis. L. Blachere مستشرق فرنسي من أشهر مستشرقي فرنسا في القرن العشرين ومن أعضاء المجمع العلمي العربي بدمشق والمجمع الفرنسي الأعلى (الأنستيتو) بباريس، ولد في ٣٠ يونيه ١٩٠٠م في مونروج إحدى ضواحي باريس، وسافر مع والديه إلى المغرب في ١٩١٥م أي وهو في السادسة عشرة من عمره، وقد كان أبوه موظفا في متجر، ثم موظفا صغيرا في الإدارة الفرنسية في مراكش التي تم إعلان الحماية الفرنسية عليها سنة ١٩١٢م، وقضى دراسته الثانوية في مدرسة فرنسية في الدار البيضاء، وعين ملاحظا في مدرسة مولاي يوسف بالرباط بعد حصوله على البكالوريا، فالتحق بالجامعة وحصل على ليسانس اللغة العربية من كلية الآداب بالجزائر عام ١٩٢٢م، ثم أمضى السنة التالية في مدينة الجزائر حيث تابع دروس وليم مرسيه، وعاد بعد ذلك إلى الرباط، وتولى العديد من المناصب العلمية منها أستاذ اللغة العربية في معهد مولاي يوسف بالرباط، ومدير معهد الدراسات المغربية العليا (١٩٢٤م-١٩٣٥م)، ونال الدكتوراه (١٩٣٦م) من جامعة باريس برسالتين:

الأولى: بعنوان "شاعر عربي من القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي أبو الطيب المتنبي".

(١) انظر: الأعلام، خير الدين الزركلي، ط/١٥ دار العلم للملايين، ٢٠٠٢م ، ٧٢/٢. موسوعة المستشرقين، عبد الرحمن بدوي، ط/٣، دار العلم للملايين- بيروت، ١٩٩٣م، ص١٢٧. المستشرقون، نجيب العقيقي، ٣١٦/١، ط/٣، دار المعارف - القاهرة، ١٩٦٤م. معجم أسماء المستشرقين، يحيى مراد، ص٢٦٣.

والثانية: ترجمة فرنسية لكتاب "طبقات الأمم" للقاضي صاعد الأندلسي، مع تعليقات مفيدة عليه.

ثم استدعته مدرسة اللغات الشرقية بباريس أستاذا لكرسي الأدب العربي (١٩٣٦-١٩٥١م)، وعين أستاذا في السوربون حيث شغل كرسي اللغة والأدب العربيين (١٩٣٨م) وحتى تقاعده سنة ١٩٧٠م، كما عين مديرا لمدرسة الدراسات العليا والعلمية (١٩٤٢م)، ثم أستاذ اللغة العربية وحضارتها في باريس، وشغل منصب مدير معهد الدراسات الإسلامية الملحق بجامعة باريس (١٩٥٦-١٩٦٥م)، وأشرف على مجلة «المعرفة» الباريسية الصادرة باللغتين العربية والفرنسية، وانتخب عضوا في أكاديمية النقوش إحدى أكاديميات معهد فرنسا سنة ١٩٧٢، وتوفي في السابع من أغسطس ١٩٧٣م.

من أبرز إنتاجه:

كان أكثر إنتاجه يصب في مجالين هما الدراسات القرآنية والدراسات اللغوية والأدبية، وقد عني بلاشير عناية خاصة بدراسة القرآن، فكان مما ألف فيه:

١- ترجمة لمعاني القرآن الكريم إلى اللغة الفرنسية، تقع في ثلاثة أجزاء، وقد رتب فيها سور القرآن على حسب ما رآه في ترتيب نزول السور والآيات عام ١٩٤٩م، ثم عاد إلى ترتيب المصحف حين أعاد طباعة الترجمة عام ١٩٥٧م، وهي ترجمة وصفها الباحثون بأنها غير أمينة حيث إنه لم يحترم النصوص القرآنية بل تصرف فيها وأضاف إليها وحذف منها وفق هواه وفهمه مما يدل على قصور فهمه للقرآن وعدم

قدرته على استيعاب معانيه ومراميه[١].

٢- كتاب (القرآن .. نزوله، تدوينه، ترجمته، تأثيره) الذي هو موضوع هذا البحث.

٣- كتاب مقدمة القرآن وهو عبارة عن مقدمة لترجمته لمعاني القرآن ثم نشرها في كتاب مستقل.

٤- نبذة عن النفس في القرآن، وهو بحث نشره في مجلة الساميات سنة ١٩٤٨م.

٥- كتاب (معضلة محمد) تناول فيه شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم والإشكاليات التي تتعلق بها من وجهة نظره الاستشراقية.

أما مؤلفاته اللغوية والأدبية فهي غزيرة نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:

١- كتاب (تاريخ الأدب العربي) في جزأين وترجمه إلى العربية إبراهيم الكيلاني.

٢- كتاب (أبو الطيب المتنبي: دراسة في التاريخ الأدبي) ترجمه إلى العربية الدكتور أحمد أحمد بدوي، وقد تناول فيه الشعر ونقاده: إبراهيم اليازجي، وحسن المرصفي، وجرجي زيدان، وأحمد الإسكندري، وزكي مبارك، وشوقي، وحافظ إبراهيم، وكامل الكيلاني، وأحمد ضيف، وعبد القادر المازني، ومحمد الأسمر، وفؤاد إفرام البستاني، وأحمد حسن الزيات، وعباس محمود العقاد، وطه حسين، وشفيق جبري، وغيرهم بالتحقيق والتعليق والنقد، فجاء الكتاب من خير الكتب التي تعرضت للشاعر.

---

(١) المستشرقون والقرآن، دراسة لترجمات نفر من المستشرقين الفرنسيين للقرآن وآرائهم فيه، إبراهيم عوض، ط/١ مكتبة زهراء الشرق- القاهرة ، ١٤٢٣هـ- ٢٠٠٣م، ص٥٣.

٣- كتاب «قواعد العربية الفصحى».

٤- «معجم عربي فرنسي انكليزي».

بالإضافة إلى عدد من الكتب والأبحاث باللغة الفرنسية نشرها في حوليات فرنسية وترجم بعضها إلى اللغة العربية وأكثرها في مجال الأدب العربي وتراجم الأدباء، كتبها مستقلا، منها: "هل للعكبري تعليق على ديوان المتنبي"، مؤتمر المستشرقين ١٩٣٨، وحول تعليق على ديوان المتنبي (حولية معهد الدراسات الشرقية ١٩٣٨م)، ثم سعيد البغدادي في إسبانيا (هسبيريس ١٩٣٠)، وسيرة ومصنفات الشاعر المترسل الأندلسي ابن دراج القسطلي (هسبريس ١٩٢٣م) ومقتبسات عن أشهر الجغرافيين العرب في العصر الوسيط، باريس ١٩٣٢م، وفاس في كتب الجغرافيين العرب في العصر الوسيط، وترجمة طبقات الأمم لصاعد الأندلسي بمقابلة النص الذي نشره الأب شيخو علي مخطوط باريس (باريس ١٩٣٥م)، والوزير الشاعر ابن زمرك (حوليات معهد الدراسات الشرقية ١٩٣٦م)، ومنها ما كتبه بمعاونة مستشرقين آخرين من مواطنيه أمثال رينو وجودفرواوديمومبين، وسوفاجه، وماري سيكالدي أدريان، ودارمون.

وقد كان له تلاميذ من المستشرقين من أهمهم المستشرق الفرنسي أندري ميكال وهو من أكثر المستشرقين حقدا على الإسلام وتعصبا ضده[1].

ثانيا: التعريف بالكتاب ودوافع تأليفه ومنهج صاحبه فيه.

التعريف بالكتاب:

هذا الكتاب الذي أتناول من خلاله موقف مؤلفه بلاشير من القرآن الكريم وهو كتاب (القرآن .. نزوله، تدوينه، ترجمته، تأثيره) يعد من أهم

(١) انظر: آراء المستشرقين حول مفهوم الوحي عرض ونقد، إدريس حامد محمد، ص١٩.

الكتب التي كتبها المستشرقون في القرن العشرين عن القرآن الكريم، وقد كتب بلاشير هذا الكتاب الذي هو موضوع البحث باللغة الفرنسية، وقام بنقله إلى العربية المترجم رضا سعادة، وأشرف على الترجمة الدكتور الأب فريد جبر، وحققه وراجعه الشيخ محمد علي الزعبي، وقامت بطباعة هذه الترجمة العربية دار الكتاب اللبناني في بيروت الطبعة الأولى سنة ١٩٤٧م، وهو يقع في ١٧٩ صحيفة من القطع المتوسط، ويتكون من مقدمة وسبعة فصول.

أما مقدمة الكتاب –وهي مهمة جدا– فقد جاءت عبارة عن تأريخ لأهم ترجمات معاني القرآن الكريم إلى اللغات الأوربية ودوافعها وأهمية كل ترجمة منها، وسنتكلم عن ذلك خلال البحث.

وبينما يوحي عنوان الكتاب بأنه سيبدأ بالحديث عن نزول القرآن وهذا هو المنطقي في دراسة القرآن، إلا أننا بمجرد أن نتجاوزها نفاجأ بأنه جعل الفصل الأول بعنوان (المصحف بنيته وتكوينه) ليبدأ بالحديث عن المصحف، ولعل السبب في ذلك يرجع لاهتمامه بمسألة ترتيب الآيات والسور داخل المصحف بين ما هو واقع فعلا ومجمع عليه من المسلمين، وبين ما يراه هو أولى لإمكانية فهم القرآن فهما تاريخيا بحسب مراحل نزوله، وما يدل عليه من أحداث وقعت في زمن النبوة على نحو ما هو موجود في الكتاب المقدس الذي يسرد أحداثا تاريخية مرتبة ترتيبا تاريخيا في العهد القديم الذي يبدأ من أول بدء الخليقة وقصة البشر على الأرض، لاسيما ما يتعلق بالأنبياء والأحداث الكبرى، كنوح والطوفان، وإبراهيم وبنيه إسحاق فيعقوب ويوسف وبقية الأسباط، حتى زمن موسى وخروج بني إسرائيل من مصر ثم التتبع لتاريخ بني لإسرائيل حتى زمن زكريا وابنه يوحنا المعمدان (يحيى)، ثم العهد الجديد الذي يجسد في الأناجيل قصة حياة المسيح من وجهات نظر كاتبيها، ثم مرحلة تاريخ النصرانية بعد المسيح.

وقد تحدث بلاشير في هذا الفصل عن نشأة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في الجزيرة العربية ومقدار تأثره باليهودية والنصرانية، ثم تحدث فيه عن جمع القرآن الكريم مقررا أن أول جمع له تم في عهده -صلى الله عليه وسلم- وذلك بتأثره باليهود لأنه أحب أن يكون له كتاب خاص به كما لليهود كتاب، ثم تحدث عن الجمع الثاني في عهد أبي بكر -رضي الله عنه- والجمع الثالث في عهد الخليفة عثمان -رضي الله عنه-، ثم انتقل للحديث عن القراءات القرآنية ودورها في فهم النص القرآني، واعتراض بعض العلماء عليها زاعمين أنها تهدم قدسية النص القرآني، ثم تحدث عن موقف بعض الفرق الإسلامية من النص القرآني.

ثم تحدث بعد ذلك عن ترتيب الآيات والسور القرآنية في القرآن الكريم، وتقسيم القرآن إلى أجزاء زاعما أن القرآن فيه بلبلة فكرية، وختم هذا الفصل بالثناء على نولدكه وتجربته في ترتيب المصحف ترتيبا زمنيا.

أما الفصل الثاني فعنوانه: (الرسالة القرآنية في مكة) وقد تعرض فيه لأسلوب القرآن المكي وأنه كان متأثرا بشبح اليوم الآخر الذي كان يخيم على فكر الرسول - صلى الله عليه وسلم- وهذه الفرية قد سبقه إليها المستشرق كازانوفا، ثم زعم بلاشير أن هذه القضية هي السبب في مجيء السور على نوعين:

الأول: سور قصيرة وهي بسيطة في إيحاءاتها وهي في إحدى عشرة سورة موزعة في المصحف.

الثاني: سور آياتها أطول في اثنتين وعشرين سورة تبتدئ بسورة الكهف وتنتهي بسورة النجم، وهي مختلفة العناصر والأسلوب، وقد ذكر أن كلا النوعين جاء لتثبيت العقيدة والتركيز عليها، وقد لخص في نهاية هذا الفصل أسلوب السور المكية زاعما أن القرآن في هذه الفترة كان مضطربا.

أما الفصل الثالث وعنوانه (رسالة القرآن في المدينة) فقد ذكر بلاشير أن الوحي في هذه الفترة قد تطور حتى أصبحت سوره تمتاز بالطول، وهي أربع وعشرون سورة، وختم الفصل ببعض القضايا الخاصة بمحمد – صلى الله عليه وسلم– وبعض المشاكل الخاصة بالوحي كمعالجته للنظام القبلي وغير ذلك.

أما الفصل الرابع وعنوانه (الواقعة القرآنية وعلوم القرآن) فقد تحدث فيه عن التنزيلات التي نزلت على رسول الله –صلى الله عليه وسلم– وبلغها للناس من انقلابات سياسية واجتماعية وتطورات فكرية وأخلاقية ونظرات علمية ودينية، وما أدت إليه هذه التنزلات من تقدم حضاري وتمدن واضح في المجتمعات الإسلامية، كما تحدث عن دور اللغة في هذا التمدن، ثم تعرض للأسلوب القرآني ودوره في إيجاد مذاهب تفسيرية كالتفسير النحوي، لأهل البصرة وما نتج عن هذا الأسلوب من قراءات مختلفة، كما عاد إلى الحديث عن أسلوب القرآن المكي وما أحدثه من تفوق إبداعي في مجال الإعجاز القرآني، وعلوم البلاغة مما مهد لظهور التفسير بعد ذلك كعلم مستقل.

أما الفصل الخامس وعنوانه (التفسير القرآني أصوله وأغراضه) فقد ذكر المؤلف فيه أن بدايات تفسير القرآن كانت في زمن الرسول –صلى الله عليه وسلم– ثم تابع سيره ملازما للسلطة المرتبطة بهذا الوحي.

ثم تحدث عن الصعوبات التي كانت تواجههم لخدمة هذا العلم كعدم ثبوت الخط العربي الذي نتج عنه غموض في اللهجات وتعدد في القراءات سببت نشأة علم التفسير، كما ذكر أن من أسباب تطور علم التفسير ظهور الفرق الإسلامية وتعددها وحرص كل منها على دعم آراءه بالنصوص القرآنية وحمل شروحها لما يوافق آراءهم مما أظهر نوعين من التفسير أطلق عليهما التفسير اللفظي والتفسير التأويلي، ثم تناول بعض مشاهير المفسرين

وكتبهم كالإمام الطبري وتفسيره، والرازي الذي غلب على تفسيره الطابع الكلامي، ثم انتشر بعدة ذلك عدة ألوان في التفسير كالتفسير العقلي في مدرسة محمد عبده.

أما الفصل السادس فعنوانه (القرآن والسنة مصدر العقيدة والشريعة في الإسلام) فقد تكلم فيه عن السنة ودورها في التعرف على سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وتاريخ نزول القرآن وتأثيره على مفهوم النسخ وفهم النص القرآني، كما تعرض لموقف بعض الفرق من النص القرآني كالجبرية والقدرية، كما تحدث عن دور السنة في ظهر مدرسة تأويل الحديث، ثم تحدث عن القرآن باعتباره مصدرا للتشريع كتحريم الزنا والخمر والربا والحرابة وغيرها، ثم تحدث عن مصادر التشريع الأخرى كالسنة والإجماع والقياس والاجتهاد، ثم ختم بدور مدرسة محمد عبده في الرجوع إلى المصدرين الكتاب والسنة.

أما الفصل السابع فقد جعل عنوانه (القرآن في الحياة الإسلامية والمجتمع الإسلامي) وتكلم فيه عن مكانة القرآن في نفوس المسلمين، ما له من تأثير عليهم، ومقدار اعتناء المسلمين به بتحفيظه لأبنائهم، وما عليه معلم القرآن في السابق والحاضر من الاحترام والتوقير بين المسلمين، ثم تحدث عن أهمية القرآن في عبادات المسلمين كالصلاة، وفي التحصين من السحر والحسد ونحو ذلك، كما وصف هيئة القراء أثناء قراءته واعتناء المسلمين بالمصاحف حتى كتبوا فقرات من القرآن على جدران مساجدهم، وتخصص بعض الخطاطين بنسخ المصاحف وتزيينها وتذهيبها، وإنشاء إذاعات متخصصة في بث قراءة القرآن، وختم الفصل بالحديث عن دور

القرآن في حياة المسلمين وحل مشاكلهم السياسية والاجتماعية[١].

ويبدو المؤلف متأثرا ببعض سابقيه ومعاصريه من المستشرقين أمثال نولدكه وكازانوفا وجولد تسيهر وغيرهم.

أهمية الكتاب:

وتأتي أهمية هذا الكتاب من عدة وجوه:

أولا: أن مؤلفه وهو بلاشير من أهم المستشرقين الفرنسيين في القرن العشرين، ومن أكثرهم معرفة باللغة العربية وآدابها، فقد ذكرنا عنه في ترجمته دراسته للغة العربية وآدابها وتخصصه فيها حتى صار عضوا في المجمع العلمي العربي بدمشق، وهذا يعطي كتابه عن القرآن أهمية لمعرفة مدى قدرته على استيعاب بيان القرآن، وهل نجح في ذلك أو غلبت عليه عجمته؟ وهل كان منصفا في تناوله لترجمة القرآن أو كان كغيره من المستشرقين الذين غلبت عليهم عصبيتهم ضد الإسلام؟

ثانيا: أن المؤلف بلاشير قد عني بالقرآن الكريم عناية كبيرة فصرف همه إلى ترجمة معانيه إلى اللغة الفرنسية استغرقت منه جهدا كبيرا، وخرجت في ثلاثة أجزاء، وقد اهتم بترجمته هذه كثير من الباحثين المسلمين أمثال الدكتور إبراهيم عوض، والشيخ فودي سورييباكمارا الذي أعد دراسة لهذه الترجمة وأبدى ملاحظات ومآخذ جمة على هذه الترجمة، وقد بينا لنا كم الأخطاء المنهجية واللغوية التي وقع فيها بلاشير في هذه الترجمة.

ثالثا: أن بلاشير حاول في تناوله للقرآن أن يتظاهر بالموضوعية والأمانة العلمية والتخلي عن التعصب ضد الإسلام التي طفحت على كتابات كثير من المستشرقين وفشلوا أن يكتموها أو يخفوها.

---

(١) آراء المستشرقين حول القرآن الكريم وتفسيره عرض ونقد، عمر إبراهيم رضوان، ط/ دار طيبة للنشر والتوزيع-الرياض، ١٤١٣هـ-١٩٩٢م، ١/١١٢-١١٧.

رابعا: أن القرآن الكريم هو مصدر التشريع الأول في الإسلام، وهو المعجزة الخالدة الناطقة بصدق نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وإثبات نبوته ورسالته، ومن ثم فقد صرف كثير من المستشرقين عنايتهم بهذا الكتاب العزيز بغية أن يجدوا فيه ضالتهم للطعن في الإسلام ونبيه وكتابه فكانوا كمن قال الشاعر فيه:

كناطح صخرة يوما ليوهنها ... فلم يضرها وأوهى قرنه الوعل

لكنهم اكتفوا ببث بعض الشكوك والشبهات حوله، فكان لابد من التصدي لها وإظهار زيفها وافترائها ومجافاتها للحقيقة.

والكتاب كما يبدو من عنوانه محاولة لدراسة جادة للقرآن الكريم من زوايا عديدة لكنها أساسية وبالغة الأهمية، ومن ثم فقد شمل هذا الكتاب عدة جوانب في دراسة النص القرآني وما يحيط به، مما يضفي على الكتاب أهمية تضاف إلى الوجوه التي سبق ذكرها.

دوافع مؤلفه إلى تأليفه:

أما دوافع بلاشير من تأليفه الكتاب فهي لا تختلف كثيرا عن دوافع كثيرين غيره من المستشرقين الذين عنوا بالدراسات القرآنية وهي محاولة التشكيك في إلهية المصدر القرآني وإثبات بشريته، والبحث عن مبررات للطعن فيه، وذلك بتتبع الروايات الواهية، والتلفيق بين عدة روايات للوصول إلى نتيجة معدة سلفا، ومحددة قبل القيام بالبحث، مما يفقد البحث موضوعيته، ويفقد القارئ الثقة في أمانة المؤلف العلمية، ورغبته في الوصول إلى الحق، وتخليه عن العصبية والأحكام المسبقة.

منهج مؤلفه فيه:

أما منهج بلاشير في تأليفه لهذا الكتاب فهو منهج مضطرب فهو لا يلتزم منهجا واضحا في كتابه، فتارة يتبع المنهج التاريخي، وتارة يعمد إلى

من يتبع المنهج الانتقاء فيكتفي بالروايات التي تخدم وجهة نظره، حتى ولو كانت واهية أو ملفقة دون غيرها من الروايات الصحيحة، وتارة يلجأ إلى المنهج الإسقاطي فيسقط على القرآن بعض المثالب التي تتعلق بالكتاب المقدس، مما يدل على مجافاته للموضوعية، وتخليه عن الروح العلمية، في تناوله لهذا الموضوع، وعدم أمانته في النقل والتفسير للروايات التي يعمد للاستشهاد بها.

وهو بهذا يتبع المنهج الغالب على دراسات المستشرقين للقرآن الكريم خصوصا وللموضوعات المتعلقة بالإسلام عموما سواء في ذلك القدامى منهم والمعاصرين، إذ يعتمدون على مصادر معينة لا يتجاوزونها من تلك التي تهتم بجمع الروايات دون تمحيصها ككتاب المصاحف لأبي داود، والإتقان للسيوطي، والفهرست لابن النديم، بينما يهملون الروايات الصحيحة الواردة في كتاب الصحاح والسنن ومقدمات المفسرين القرآنية كمقدمة ابن عطية، ومقدمة ابن جزي، ومقدمة القرطبي وغيرها، كما يهملون كتبا مهمة في علوم القرآن ككتاب أبي شامة المقدسي (المرشد الوجيز إلى علوم تتعلق بكتاب الله العزيز، أو كتاب البرهان في علوم القرآن للزركشي، وكتاب التبيان للنووي، وكتاب ابن الجوزي (فنون الأفنان في عجائب علوم القرآن)، أو شروح الكتب الستة وهي الصحيحان والسنن الأربعة، وهذا يظهر أثره في تكرار الشبهات والافتراءات التي تتردد بين المستشرقين القدامى منهم والمعاصرين.

بل إننا نجد بلاشير يلجأ إلى مصادر غير متخصصة في علوم القرآن أو معنية بدقة الروايات وتمحيصها ككتب الأدب والتاريخ دون الاكتراث بما يؤدي إليه الاعتماد على تلك المصادر في قضايا جوهرية تتعلق بالقرآن وعلومه من خلل منهجي فادح، بغية التأكيد على ما يصبو إلى تأكيده من أحكام مغرضة، واستنتاجات مغلوطة، وآراء متعسفة، أو التشويش والبلبلة في

أذهان القراء المسلمين، كما فعل في معرض حديثه عن عدد السور المكية والمدنية حيث أحال في أحد الحواشي على كتاب الإتقان، ثم قال بعد ذلك: "حسب رواية يقدمها لنا ابن النديم في كتابه (الفهرست) فإن عدد السور المكية ٨٥، وعدد السور المدنية ٢٨"، ثم يعقب بقوله: "لاحظوا فالمجموع ١١٣ سورة"، وهنا نجد الرجل المعروف بمنهجه الصارم وحسه النقدي في البحث لم يجرؤ على أن يقول مثلا إنه ربما وقع سهو في كلام ابن النديم أو أن العدد ٨٦ تحول إلى ٨٥ خطأ أثناء النسخ، أو ٢٩ تحول إلى ٢٨، ما دام إجماع الأمة الإسلامية وكذلك ما تنطق به الملايين من المصاحف المطبوعة على أن عدد سور القرآن ١١٤ سورة[١].

ومن الواضح جدا في الكتاب تأثر بلاشير الشديد بالمستشرق الألماني نولدكه في كتابه (تاريخ القرآن) حتى أنه لا يتوانى في الإحالة عليه كلما أراد أن يوثق حديثا نبويا ذكره أو رواية مأثورة تختص بمسألة جمع القرآن مثلا دون الإحالة إلى مصادرها الأصلية في كتب الحديث، حتى أننا نجده في حاشية له في كتابه يحيل على كتاب نولدكه المذكور ثم يضع بين قوسين إشارة إلى أنه قد أسند نقله إلى تفسير الطبري، ورغم أنه قد تبين له عدم صحة الإحالة ونص على ذلك إلا أنه يمضي في استشهاده بما نسبه نولدكه للطبري في تفسيره لمجرد أنها تخدم غرضه وتثبت وجهة نظره[٢].

---

(١) انظر: مناهج المستشرقين البحثية في دراسة القرآن الكريم، حسن عزوزي، مجلة البحوث والدراسات القرآنية، ط/ مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة، ضمن أبحاث ندوة القرآن في الدراسات الاستشراقية، ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م، ص١٩، ٢٠.

(٢) المرجع السابق: ص٢٠.

الفصل الثاني

موقف بلاشير من القرآن

المبحث الأول: موقفه من نزول القرآن

عرف المستشرق بلاشير كلمة قرآن بقوله: "إن السور المنزلة الأولى التي افتتحت دعوة محمد تشتمل على الأصل اللغوي لاسم القرآن، ففي بعض المقاطع القرآنية وردت كلمة قرآن بمعنى التلاوة، ويمكن أن تكون هذه الكلمة مأخوذة عن اللغة السريانية التي يرد فيها لفظ مشابه جدا لهذا المعنى، أما بالنسبة لمحمد وأبناء جيله فإن كلمة قرآن فضلا عن كونها مزودة بجرس موسيقي، تعبر أساسا عن فكرة التبليغ بالقول، والتبشير الديني، والرسالة التي أخذت عن ملاك، وفي وقت قريب من نهاية دعوة محمد فقط، عندما ابتدأ الكلام المنزل يثبت بالكتابة والتدوين، أمكن لكلمة قرآن أن تأخذ المعنى العام للكتاب المقدس بحسب المفهوم الذي نعرفه نحن، وقد أعطينا لكلمة قرآن هذا المعنى بطريقة مغايرة للعقيدة، لأن الكتاب المقدس يقابل لفظة كتاب في العربية التي تعني تماما النص المكتوب"[(١)].

ونستنتج من هذا النص ما يلي:

أولا: أن كلمة قرآن – برأيه– في اللغة بمعنى التلاوة، وقد جاء في ترجمة أخرى لنص بلاشير أنها التلاوة بصوت مرتفع[(٢)]، وقد رأى بلاشير أن هذا المعنى اللغوي قد حددته بعض المقاطع القرآنية التي وردت في سورة من السور الأولى التي نزلت على النبي – صلى الله عليه وسلم– ولم يعين هذه

(١) القرآن .. نزوله . تدوينه . ترجمته . تأثيره، ريجيس بلاشير، ص٢٣، ٢٤.

(٢) آراء المستشرقين الفرنسيين في القرآن الكريم دراسة نقدية، أحمد نصري، ط/١ دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع-الرباط، المملكة المغربية، ٢٠٠٩. ص٢٦، ٢٧، وقد عبر عن استغرابه من إسقاط مترجم الكتاب رضا سعادة لهذه الكلمة من ترجمته.

الآيات ولا حتى السورة.

ثانيا: زعم بلاشير أن كلمة قرآن مأخوذة من كلمة سريانية قريبة منها في اللفظ والمعنى، ولم يذكر كذلك هذه الكلمة، ولا كيف وصلت إلى النبي -صلى الله عليه وسلم-، ولا شيئا يثبت معرفته بها وهو لم يعرف السريانية ولا تعلمها ولا تكلم بها قط، ولا كانت متداولة أو معروفة لدى قومه وفي بيئته، ولم يكن بلاشير أول من ذهب إلى ذلك بل سبقه إليه المستشرق الفرنسي شوالي، ولعل بلاشير قد أخذ هذه الفكرة منه، إلا أن شوالي قد جزم بأن كلمة قرآن مأخوذة من أصل سرياني دون أن يذكر دليلا عليه، بينما لم يجزم بلاشير بذلك، بل عبر عنه بصيغة الاحتمال.

ثالثا: زعم بلاشير أن إطلاق اسم الكتاب على القرآن لم يقع إلا في أواخر حياة النبي - صلى الله عليه وسلم- عندما ابتدأت كتابته وتدوينه، وأصبح القرآن ليس مجرد سور وآيات محفوظة ومتلوة بالألسنة، بل صارت كذلك مدونة ومكتوبة، وأخذت شكل الكتاب المقدس بمعناه المعروف عند أهل الكتاب كنص مكتوب.

وقد قسم بلاشير سور القرآن من حيث النزول إلى أربعة مراحل، موضحا ما تميزت به كل مرحلة من سمات -من وجهة نظره- سواء من حيث الموضوع أو من حيث الأسلوب.

والذي يبدو أن بلاشير قد اتكأ في معالجة هذا الموضوع اتكاء واضحا على آراء نولدكه، وليس هذا بغريب على بلاشير ما دام يعتبر طريقة نولدكه هي الطريقة المثلى التي يجب التقيد بها فيقول: "تدل التجربة فيما يبدو على أن التقيد بالمراحل الزمنية للترتيب الذي اقترحه نولدكه وأخذ به بعض المترجمين يجعل قراءة المصحف سهلة بل ممتعة"[١].

---

(١)القرآن .. نزوله . تدوينه . ترجمته . تأثيره، بلاشير، ص٤٤.

وهذه المراحل الأربع عنده كالتالي:

١- المرحلة المكية الأولى:

وهذه المرحلة تشتمل على عدة موضوعات مرتبة في رأيه على النحو التالي:

أ- الاضطراب والتردد أمام مسئولية الرسالة: وقد عبر عنها بقوله: "إذا انطلقنا من السورة الثالثة والخمسين (النجم) من مصحف عثمان، وجدنا تتابعا في سور من قصير إلى أقصر، تهدينا إلى اللحظات الأولى للدعوة، كان محمد مضطربا مترددا في قواه، قريبا إلى اليأس أمام ضخامة رسالته (سورة المدثر والضحى والانشراح)"(١).

ب- تصوير اليوم الآخر وأهواله العظيمة: حيث يقول بلاشير: "ثم تلي ذلك مجموعة أشد إيحاء، إذ إنها تعد ثلاثا وعشرين سورة، فتوضح لنا التجربة الأولى للنبي الجديد، إنه ما يزال تحت وطأة النداء الإلهي، يلازم خياله تصوره للكارثة الأرضية التي ستقضي على العالم، وتصوره للحساب الأخير، إن الساعة لقريبة ولا تحديد للوقت الذي ستقع فيه على البشر، وإن هلعا عظيما سيصيب الآثمين والموسرين (كما في سورة المعارج) .. والأرض سترتعد هي أيضا وسيقتلع الأموات من سباتهم وتكون ساعة الحساب (كما في سورة الزلزلة) .. والجزاء على الأعمال يتعين بتقابل مذهل بين مصير المعذبين والناجين (كما في سورة الحاقة) .. إننا نحس هذه الخاصية في كل مقطع، على أن التذكير بالملذات الفردوسية في جنات عدن يمثل أفضل من كل ما سواه ما في الأسلوب من بساطة

(١) المرجع السابق، ص٤٥.

إيحائية (كما في سورة الطور)"[١].

ج- الحديث عن قدرة الله وتنزهه وإنعامه على خلقه ورحمته بهم، يقول بلاشير: "ولقد نجد في هذه النصوص ذاتها موضوعا آخر من مواضيع التبشير تكشف كثرة وروده ما يكفي من دلالة على الأهمية التي يتخذها في عمل محمد النضالي، لا شك أن الله يوصف بقدرته الكلية وتنزهه، لكنه ليس مع ذلك صانعا عديم الشفقة، إنه خالق يظهر حدبه على البشر بعطاياه واهتمامه بتزويد العالم بحلاه، كما أن النبات والفاكهة والقطعان التي تعطي الكساء واللبن والغذاء هي كذلك مظاهر لعطفه (كما في سورة الرحمن)"[٢].

د- التأكيد على أهمية الرسالة المحمدية، قال بلاشير: "ولا يقل أهمية في سور هذه الفترة ظهور موضوع آخر كان ملحقا للتذكير بالساعة، إنه التصريح بسمو الرسالة التي كلف بها محمد، ففي سورة التكوير تصاغ هذه القضية الأساسية في الإسلام بألفاظ في منتهى القوة"[٣].

ه- إثبات عقيدة التوحيد باعتبارها العقيدة الأساسية في الإسلام، قال بلاشير: "لم تسلط الأضواء على إثبات عقيدة أساسية في الإسلام إلا وهي وحدانية الله، بل يبدو أن سورة النجم تحتوي على آثار تردد في شجب عبادة ثلاث من ربات المكيين، لكنما النص في وضعه الحالي ظل يحتمل تصحيحا تخمينيا[٤]، إلا أن الوحدانية الإلهية

---

(١) المرجع السابق، ٤٥، ٤٦.
(٢) المرجع السابق، ص٤٩.
(٣) المرجع السابق، ص٤٩، ٥٠.
(٤) يلاحظ أن بلاشير يقصد بذلك قصة الغرانيق فهو مقتنع بها وقد ضم في ترجمته للقرآن فقرات "تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى" وهي قصة باطلة.

سرعان ما ثبتت قاطعة، وبدون مرد في سورة الإخلاص، وهكذا فمن الطبيعي أن يتجدد تثبيت هذه العقيدة الأساسية بمقدار ما تفرضه الأهمية المرتبطة بها، كما في الطور ٤٣، والمزمل ٩، وبطبيعة الحال فإن هناك صفات أخرى تطلق على الله في هذه النصوص نفسها، لكنها لا تشكل بالتأكيد ميزة غالبة في مجموعة منتظمة"[١].

و- الصراع بين الرسول ومعارضيه: يقول بلاشير "بعد هذه النصوص الأولى يمكننا أن نبحث في مجموعة مكونة من إحدى عشرة سورة موزعة في المصحف ابتداء من السورة السبعين (المعارج) تتلاقى فيها بالطبع مطولات في الأخرويات شديدة الشبه بما عرفناه، لكن مجموعة أخرى من الموضوعات توسع أيضا وتشهد لتغير في الموقف نحو المعارضين المكيين، لا شك أن هؤلاء جعلوا النبي يشعر بصعوبة كل اتفاق، فإن الحرب الكلامية في وجههم ازدادت خشونة ونفاد صبر، كما دنا هجره لهم بالتأكيد"[٢].

ز- الحض على التوبة والصدقة والتعبد إلى الله بقيام الليل والأدعية: يقول بلاشير: "وفي الوقت ذاته يزداد الحض على التوبة اتقادا، كذلك إدانة الأغنياء والأمر بالصدقة (البلد ١-٢٠)، وتشير آيات في مواضع متعددة إلى أن التعبد لرب المشرق والمغرب قد بدأ يتشكل من غير أن يتحدد بالتفصيل، وكان إحياء صلاة الليل يحتل فيه مركزا مهما {يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ * قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا * نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا}[٣]، فهل نحكم بأن المهتدين الأوائل قد جهزوا منذ ذلك الحين أدعية معينة لتتلى

(١) المرجع السابق، ص٥١، ٥٢.
(٢) المرجع السابق، ص٥٢.
(٣) سورة المزمل الآيات ١-٤.

في هجعة اليقظة؟ لقد جوزوا هذا الافتراض، ولذلك استجابوا لضرورة جمع خمس سور فتكون إما صلوات وإما ابتهالات، وإن سورة الفاتحة التي سميت هكذا لأنها فاتحة المصحف هي جديرة بالذكر لأنها تتخذ في العبادة دورا مماثلا لفاتحة "أبانا الذي في السماوات في التعبد المسيحي"(١).

المرحلة المكية الثانية:

وهذه المرحلة تتميز بأنها سورها أطول من سور المرحلة السابقة، كما تتميز بموضوعاتها وأسلوبها يقول بلاشير: "إن الفترة الثانية من الدعوة في مكة تتمثل باثنتين وعشرين سورة تبتدئ بسورة الكهف وتنتهي بسورة النجم، وهي نصوص موسعة ومختلفة العناصر، ويوجد مثل نموذجي على هذا المظهر التجميعي في سورة الكهف، إنا نتبين في هذه النصوص كثرة استعمال اسم الرحمن إلى جانب أسماء أخرى تطلق عادة على الإله، وربما وافق اللجوء إلى هذه المفردات تصورا خاصا بهذه الفترة (الزخرف ٩-١٣، وخاصة يس ٣٣-٤٤)، ويظهر التناقض القطعي دائما بين الأمة الفتية وخصومها، فنرى لهجة الجدل في فقرة من سورة المؤمنون (٨١-٩٠) وتتأكد في السورة ذاتها عقيدة التوحيد، إن دور المنذر الذي أنيط بمحمد يصبح موضوعا لعدة تذكيرات، وله تعريف دقيق في مقطع من سورة الكهف (٩٤-٩٦)، أما الكافرون فإن القرآن لم يقتصر فيما يتعلق بهم على وصف نتائج الاختيار بين الصراط المستقيم وغير المستقيم، بل إن جهنم تغدو وعيدا موعودا للمشركين المكيين الذين صموا آذانهم في وجه دعوة محمد"(٢).

كما تتميز هذه المرحلة في نظر بلاشير بكثرة تكرار قصص الأنبياء

(١)القرآن .. نزوله . تدوينه . ترجمته . تأثيره، بلاشير، ص٥٣.
(٢) المرجع السابق، ص٥٤، ٥٥.

الذين "تألموا من الهزء وعانوا مما وجهه إليهم مناوئوهم من الإهانة والتهديد (كما في سورة الأنبياء والشعراء والصافات والقمر) هكذا يعالج هنا موضوع النبي المبشر في الصحراء كما ترى، بالاستناد إلى قصص قومية وإلى قصص مأخوذة من التوراة، أما مع القصص التوراتية فلم يكن من التوازي بد، والقرآن يتتبع عن كثب الديباجة التوراتية عامة، إلا أن اللغة العربية تضفي على الرواية ميزة غريبة بسياقها المكثف، وباهتمامها بالإيحاء أكثر من اهتمامها بالوصف، وفي هذه النبويات تكثر القصص عن موسى بصورة ملحوظة، في حين أن مركزا مهما قد جعل لعيسى ومريم (سورة مريم) رغم ما تميز به هاتان الشخصيتان هنا في بعض النقاط الأساسية عن الصورة التي قدمتها لنا عنهما الأناجيل الأربعة، أما القالب العربي الذي اتخذته شخصية إبراهيم، فهو أجدر أيضا بالملاحظة، لقد بقي إبراهيم في احتمال ذلك الوقت مثل الأنبياء الآخرين، كان يعظ صما، وكان حزنه أشد عمقا بمقدار ما كان يصطدم بزيغ والده نفسه (مريم ٤١-٥٠، الزخرف ٢٦-٣٩)"[(١)].

المرحلة المكية الثالثة:

وهذه المرحلة في رأيه تعد امتدادا للمرحلة السابقة عليها في موضوعاتها وطريقة معالجة هذه الموضوعات ولكن ذلك لا يمنع من كونها تتميز عنها بمميزات دقيقة في التفاصيل من هذه المميزات:

١- الإكثار من أسلوب الوعظ مقارنة بالمرحلة السابقة، وهو ما ذكره بلاشير بقوله: "يجب الإلحاح في نصوص هذه الفترة الثالثة على الكثرة التي يرد بها أسلوب في صيغة الوعظ، لا شك أن هذا الأسلوب كان حاضرا في السور السابقة، لكنما خلال هذه المرحلة التبشيرية الجديدة

(١) المرجع السابق، ص٥٦، ٥٧.

فإن الطريقة تتعمم"[١].

٢- تعميم الخطاب للبشرية وعدم قصره على المكيين، يقول بلاشير: "إن القرآن يستعمل كثيرا في سور هذه المرحلة الثالثة عبارة "يا أيها الناس" فالوحي إذن لم يعد موجها إلى المكيين فقط، بل أيضا إلى الذين لم يرد بعد التفكير بهدايتهم، إلى المدنيين أولا، ومن ثم إلى عالم البدو"[٢].

٣- الاهتمام بعدة موضوعات دعوية متلاحمة، يقول بلاشير: "لقد كان من الطبيعي أن نجد التلاحم في معالجة موضوعات التبشير، وهذا التلاحم يرتبط بتغير بسيط أنتجته الظروف، فإن هذه الموضوعات تبدو مرتبة وفقا لأبواب ثلاثة عامة؛ التذكير بالأخلاق الذي حصل للأنبياء الغابرين، والتأكيد على ان الإسلام في حقيقته السامية هو الشاهد على القدرة والرحمة الإلهية، والشعور بأنه ينبغي على الأمة الصغيرة التي تبعت محمدا أن تعيش بالتقوى والاستسلام لمصيرها"[٣].

٤- تبلور دور نبي الله إبراهيم كمؤسس للحنيفية، يقول بلاشير: "وربما ابتدأت في هذه الفترة معالم تطور غريب في التقدير الإسلامي لشخصية إبراهيم، هذا الأب التوراتي لن يكون فقط مكسر أصنام، ولا سلفا مكرما لأبناء إسرائيل، بل تقرر من الآن وصاعدا مؤسسا للحنيفية، وهي هذا الدين البدائي الذي بشرت به جميع الرسل ثم نسيته الأمم الملحدة"[٤].

<u>المرحلة المدنية:</u>

(١) المرجع السابق، ص٥٨.
(٢) المرجع السابق، ص٦٠.
(٣) المرجع السابق.
(٤) المرجع السابق، ص٦٤.

يرى بلاشير أن المتنزلات القرآنية في المدينة بعد الهجرة هي تعبير عن تلك المرحلة التاريخية من حياة محمد ودعوته والظروف التي مر بها وهذه المتنزلات هي أربع وعشرون سورة متفاوتة في الطول ومتفرقة في المصحف فبينما نجد سورة البقرة بطولها تأتي في بداية المصحف نجد سورة البينة وهي سورة قصيرة وقد أتت قرب نهايته، كما يرى أن السور المدنية تضم كل سورة منها عدة موضوعات قد تبدو أحيانا غير مترابطة مع بعضها(١).

ويرى بلاشير أن الموضوعات التي تناولتها السور المدنية نوعان:

الأول: موضوعات عولجت في مكة سابقا كقصص الأنبياء السابقين، وتحذير المؤمنين من المعاصي وتهديد المشركين بالعذاب.

الثاني: موضوعات جديدة جدت نتيجة ظروف البيئة الجديدة في المدينة والأحداث التي وقعت في هذه المرحلة التبشيرية.

وأهم هذه الموضوعات كما يرى هي:

١- الموضوعات المتعلقة بالحياة السياسية والمسائل الدبلوماسية والنزاع المسلح.

٢- العلاقة مع اليهود التي بدأت بمحاولة استمالتهم والتعايش السلمي معهم كما في الآية {يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ * وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ}(٢)، ولكن بعد سنة بدأت الاحتكاكات بين المسلمين واليهود، واحتدت معارضة اليهود شيئا فشيئا، فهاجرت قبيلة من القبائل اليهودية الثلاث الكبرى التي كانت تساكنهم المدينة،

(١) المرجع السابق.
(٢) سورة البقرة الآيات: ٤٠، ٤١.

ثم لقي بنو النضير مصيرا أشد قسوة بسبب تمردهم على النبي فطردوا إلى خيبر وكان قد حرضهم على ذلك المنافقون وهم زمرة عربية انضمت إلى الإسلام رياء، وانتهى ذلك الانشقاق اليهودي بإبادة عشيرة ثالثة منهم هم بنو قريظة الذين قد تواطأوا مع المشركين ضد المسلمين في غزوة الخندق، كما تواصل شجب الإسلام تعاطيهم للربا وتحريفهم العهد القديم وقلبهم لمعاني بعض المقاطع فيه، ونددد بمواقفهم في المدينة.

٣- الموقف من الطوائف المسيحية في جنوب الجزيرة العربية، والذي اتخذ أشكالا مختلفة، فخلال مرحلة تبشيرية أولى بسط هذا الموضوع بطريقة واضحة، دون وجود أي عداء معهم، لكن ذلك لم يمنع من شجب القرآن لعقيدة التثليث مرارا كما في الآية {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا }(١)، إلا أن استمالة أخرى تصاغ في سورة المائدة { لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ * وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ}(٢)، والأكيد أن لهجة التبشير لم تتغير وتنتهي إلى شجب المسيحية إلا

---

(١) سورة النساء الآيات: ١٧١.
(٢) الآيتان: ٨٢، ٨٣.

بعدما شعر محمد بأولى مقاومات العالم البيزنطي، وخاصة يوم سقوط مؤتة، حينئذ تساوى أنصار المسيح مع اليهود في لعنة واحدة.

٤- النضال المسلح ضد المشركين المكيين، وهؤلاء لا يفرض الله عليهم حربا لا هوادة فيها إن شيئا من الاختيار قد ترك لهم: {قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ}(١)، وإن لم يستسلم هؤلاء فالجهاد واجب "وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله".

٥- تناول المسائل الحساسة التي يكون لحلها أهمية في العلاقات القائمة بين أفراد الأمة كما في سورة النور من تبرئة عائشة من الشبهة التي نالت من شرفها وكما في سورتي التحريم والأحزاب من الأمور المتعلقة بنسائه، ومن تحريم الإكثار له من الزوجات (والخليلات) وكذلك حل الإشكالية التي أقلقت ضمير النبي وهي زواجه من زوجة ابنه بالتبني سابقا، بالإضافة إلى أحكام تعم النساء كما في الآية {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ}(٢).

٦- مواجهة نفوذ المنافقين الذين يصفهم المؤلف بأنهم بعض العناصر المدنية المعتمدة على قبائل البدو، وبأنهم حزب قليل العدد ولكنه مع ذلك صاحب نفوذ، وقد أطلق القرآن تسمية المنافقين على المهتدين باستخفاف أو ازدراء والذين تعارض نزول محمد في مدينتهم لحد ما مع مطامحهم الشخصية، وقد وهنت مكائدهم بعد وقعة الخندق وقضي في النهاية على عصابتهم.

---

(١) سورة الأنفال الآية: ٣٨.
(٢) سورة الأحزاب الآية ٥٩.

٧- تأديب المهتدين بآداب التعامل مع زعيم الأمة الذي شعر أكثر من مرة كم هو جدير بزعيم أمة المؤمنين أن يبتعد عن مؤالفة وتكبر المهتدين الجدد الذين مازالوا منغمسين في شظف الحياة البدوية، لقد شعر بذلك دون أن يتحول عن الصبغة الديمقراطية التي فرضها الجو العام، وهذا الموضوع يتصل في أكثر من موضع بالأدب الذي يعلمه القرآن بصورة أشمل .. إن مشاهد يومية مزعجة بتكرارها قد استدعت تنظيما يعبر عن فكرة مجهولة في عالم البدو هي مفهوم المرتبية كما في الآيات {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ * إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ * إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ * وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ}(١)

٨- موضوعات أخرى تتعلق بال الأحداث في المدينة مثل حكم الشعر والأمر بالصبر والمقاومة، والتأكيد على الرجاء، بالإضافة إلى المشاكل المادية البحتة تتعلق بالفقراء وبتمويل العمليات العسكرية ومسألة تقسيم الغنائم "هنا أيضا نعثر على صيغة براغماتية هي الميزة الأساسية ولا شك للتدابير التي تتحدد بطريقة الوحي".

٩- المشكلات التي طرحها استبدال النظام القبلي بنظام جديد، والمراتب الاجتماعية والتفاوت بين الجنسين (البقرة ٢٢٩، آل عمران ٣٥، النساء ٣٤، الأنعام ١٦٥، والنحل ٧١) كما طرحتها أيضا تحديدات متعلقة بالعبادة والمحرمات الجنسية أو الغذائية والأخلاق وبعض فرائض الكفاية كالجهاد(٢).

---

(١) سورة الحجرات الآية : ٢ – ٤.
(٢) انظر: القرآن .. نزوله . تدوينه . ترجمته . تأثيره، بلاشير، ص٧٢-٨٩.

المبحث الثاني

موقفه من أساليبه في مراحل نزوله

يرى بلاشير أن لغة القرآن تشبه لغة الشعر العربي الأصيل في إيقاعه وحركاته وسجعه وقافيته، يقول بلاشير: "إن لغة القرآن تظهر لنا بحق شبيهة بالشعر الأصيل، وذلك بفضل التلاوة والإحكام الموسيقي للمقاطع اللفظية، ويغنى النغم في الحركات، واستعمال القوافي المنظومة أو المسجعة، فلا غرو أن لم يتردد أشد المسلمين تدينا وأكثرهم انفصالا عن الدنيويات في أن يروا كتابهم المقدس أسمى عبارة عما في اللغة العربية من الإمكانات الصوتية"[(١)].

وقد زعم بلاشير أن كل مرحلة من مراحل نزول القرآن الأربع التي سبق ذكرها لها أسلوبها الخاص الذي يميزها عن متنزلات بقية المراحل، وقد وضح ذلك كما يلي:

أسلوب السور التي نزلت في المرحلة المكية الأولى:

أما عن الأسلوب الذي ميز ما نزل من القرآن في هذه المرحلة فيقول بلاشير: "إن المنزلات المتلقاة طيلة هذه الفترة المكية الأولى تتميز بوحدة الأسلوب، وتتألف الآيات على العموم من ستة إلى عشرة مقاطع صوتية، والسجعات تتتابع غالبا على قافية واحدة شديدة الوقع، وبعض السور تبنى آياتها على شكل أدوار مع لازمة تردد مرتين أو ثلاث مرات[(٢)]، وغالبا ما تفتتح السور بعبارات قسم بالنجوم أو بالجبال المقدسة فتؤلف عندئذ صيغا

(١) المرجع السابق، ص١٠١، ١٠٢.
(٢) كما في سورة المرسلات وتكرار الآية "ويل يومئذ للمكذبين" بين كل مقطعين من مقاطع السورة.

من الكلام السحري، وكل هذه النصوص تتميز بطابعها الغنائي وسياقها المذهل"[١].

أسلوب السور التي نزلت في المرحلة المكية الثانية:

أما أسلوب السور والآيات التي نزلت في هذه المرحلة فيرى بلاشير أنه يتميز تميزا واضحا عن السور التي نزلت في المرحلة السابقة فيقول: "أما من حيث الأسلوب فإن منزلات الفترة الثانية تختلف اختلافا جذريا عن منزلات الفترة السابقة، فلم تطل الآيات فقط (تكاد تضم من ١٢ إلى ٢٠ مقطعا صوتيا) لكن سياقها العام ما عاد يكشف نفس الزخم الباطن أو ينطوي على نفس القوة المذهلة، إن النبي الملهم تهيمن عليه إرادة النضال في وجه خصوم يشعر بأنهم لن ينثنوا، إن التحدي يرد على الوقاحة، وإن استعمال صيغ تكاد تتميز عن بعضها للتذكير بحقيقة واحدة يبدو وكأنه الحجة الأعلى قدرا، وإذ يخلي النسق الشعري مكانه للنقد اللاذع فإن آثار الأسلوب بحد ذاته لن تظهر بنفس المقدار من الإصرار، إن الواقع الذي يبرر ذلك باستمرار هو أن القوافي تنتهي في أكثر الأحيان على سجعات، وإن التنوع في هذه السجعات محدود"[٢].

أسلوب السور التي نزلت في المرحلة المكية الثانية:

أما ما يميز أسلوب السور المنزلة في هذه المرحلة فهو في نظره واضح جلي، وقد عبر عنه بلاشير بقوله: "إنا نكاد لا نكون في حاجة إلى التنبيه إلى قدر التغير الحاصل في أسلوب السور، خلال الفترة التي اطلعنا عليها، لا شك أنا نلاقي التقطيع إلى آيات تنتهي بقافية مسجعة، وفي أماكن كثيرة مقاطع ذات طابع غنائي يذكرنا بطابع المرحلة التبشيرية الثانية، إلا أننا

(١) المرجع السابق، ص٥٤.
(٢) المرجع السابق، ص٥٧.

نشعر حتى من خلال الترجمة إلى لغة أجنبية كم يزداد الاختلاف بين الأسلوب المتقطع الذي يتخلله الوميض والقسم واستحضار الأخرويات، وهو خاصة ببداية التبشير، وبين الصيغة الخطابية المسهبة المفعمة بالاعتراضيات والتي تتميز بها المنزلات المتلقاة في مكة يوم كان محمد يهم بترك هذه المدينة التي لم تسمع نداءه"(١).

أسلوب السور التي نزلت في المرحلة المدنية:

أما من حيث الأسلوب الذي يميز السور المدنية فيقول بلاشير: "إننا ندرك في هذه الحالات أن شكل الآيات يكشف عن إتمام تطور ابتدأ منذ نهاية التبشير في مكة، وتمكن غالبا ملاحظة الإطناب في وحدات الأسلوب المقفلة بقافية، ولا يندر العثور على آيات في عشرة أسطر أو اثني عشر سطرا ، مما يتيح التوسع دون عناء ببعض الأحكام الشرعية التي لا تقبل الصياغة في أشكال إيقاعية أقصر، ونجد من جهة أخرى تنوعا غريبا في أسلوب السور المدنية، فإن توسيعات من النوع الذي قد أشرنا إليه، توجد إلى جانب المقاطع العديدة المليئة بالشعلة والانفعال، الشيء الذي يستدعي مجددا استعمال آيات قصيرة نسبيا، وسواء أكان من ناحية الأسلوب أم من ناحية المواضيع المعالجة فإن المنزلات المتلقاة في المدينة تشهد على العموم اتصالا دائما وانسجاما دائبا مع متطلبات دعوة غير منفصلة عن الواقع"(٢).

(١) المرجع السابق، ص٦٥.
(٢) المرجع السابق، ص٧٠، ٧١.

المبحث الثالث: موقفه من تدوينه وجمعه

يرى بلاشير أن القرآن لم يدون في مكة على الرغم من وجود فكرة النص المكتوب في أذهان المسلمين المكيين من خلال معرفتهم بالتوراة والأناجيل التي كانت بيد يهود ونصارى العرب والحبشة، فيقول: "لا شك أن مفهوم النص المكتوب كان حاضرا في أذهان المهتدين المكيين الأول الذين لم يجاوز عددهم المائة إبان الهجرة سنة ٦٢٢م، ولقد أمدهم بذلك المفهوم ما كانوا يعرفون من التوراة التي كانت بين أيدي اليهود في المدينة، أو أناجيل نصارى نجران والحبشة الذين كانوا على علاقات تجارية معهم"(١).

وقد مر تدوين القرآن طبقا لوجهة نظر بلاشير بثلاثة مراحل:

المرحلة الأولى: في حياة النبي صلى الله عليه وسلم بعد الهجرة، ويقرر أن التدوين لم يحدث إلا في المدينة لا كعمل منظم وإنما كمجهود شخصي، فيقول: "يبدو أن فكرة تدوين مقاطع الوحي المهمة التي نزلت في السنوات السالفة على مواد خشنة من الجلود واللخاف، لم تنشأ إلا بعد إقامة محمد في المدينة، على أن هذه الحاجة إلى التدوين لم تظهر فيما يبدو إلا بين الحين والآخر، وربما كانت تنشأ عن تحمس شخصي لبعض نصوص تشتمل على أدعية أو أحكام شرعية كانوا يرونها هامة، ولقد شجع النبي حماسة التدوين، ولكنه لم يجعلها واجبة، وعلى أي حال فإن هذا التدوين كان جزئيا ومثارا للاختلاف، كما كان متخلفا على الأخص، بسبب عدم ثبات المواد والطرائق المستعملة لذلك التدوين، هذه المبادرات الفردية تسيء في نظرنا إلى تذكر ما كان يشق على محمد وأصحابه خاصة، من القلق أمام خطر الضياع الذي كان يهدد جوهر الإمكانات الإسلامية ذاته"(٢).

---

(١) المرجع السابق، ص٢٨.
(٢) المرجع السابق، ص٢٨، ٢٩.

المرحلة الثانية: وهذه المرحلة تؤرخ لتدوين القرآن في عهد الخلفاء الراشدين، سواء في عهد الخليفة الأول أبي بكر أو في عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان، فبعد وفاة الرسول وعلى الأخص في عهد الخليفة الأول أبو بكر الذي بحسب كلام بلاشير "قد وجد نفسه أمام عالم هائج، وعليه أن يقوم بدور كبير من قمع لارتداد خطير إلى الوثنية شرقي الجزيرة، ومن فتح يباشر به على الحدود السورية الفلسطينية سقط فيها مؤمنو الساعة الأولى، واستولى الاضطراب على بعض العقول بشأن حفظ الكلام المنزل، وأخذت الفكرة تزداد إلحاحا في تكوين مصحف يضم المجموعات الفردية، وكانت المبادرة من الخليفة نفسه، ولكن النص الذي جمع وفقا لمبادرته بقي ذا طابع شخصي، ولا يبدو أنه فاق بنفوذه أيا من النصوص التي حققها غيره من صحابة النبي"(١).

وفي عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان قام بجمع الصحابة على مصحف واحد انطلاقا من مصحف أبي بكر، مع ضم مقطوعات مبعثرة أو محفوظة غيبا فقط، وتم إخراج مصحف رسمي قصد الخليفة إحلاله محل جميع المصاحف الخاصة، ويعلق على هذا العمل بقوله: "على أن هذه الرغبة في إحلال نص ثابت ظهرت بتدبير كاد يكون هتكا للقدسيات، وهو إتلاف جميع المصاحف التي سجل عليها الأتقياء الموحيات التي جمعت على لسان محمد نفسه وفي حياته، ومع ذلك فإن مصحف عثمان بقي غير مكتمل في جوانب كثيرة منه، فإن النمط الخطي الذي استعمله الناسخون لم يزل بدائيا، ثم إن استنساخ المصاحف الخمسة الأساسية الموجودة في العواصم الإسلامية يثير مسألة خطيرة"(٢).

---

(١) المرجع السابق، ص٣٠.
(٢) المرجع السابق، ص٣١.

المرحلة الثالثة: ويؤرخ لها بلاشير بالعام ٦٦١م لدى مقتل الخليفة الرابع علي بن أبي طالب، ويرى أن الدافع وراءها سياسي يتعلق بشرعية الخلافة التي أحدثت حركة انشقاق الشيعة، وبخاصة لدن ظهور الأمويين وتحول عاصمة الخلافة السياسية إلى دمشق حيث بذلت الجهود بناء على رغبة الحجاج بن يوسف والى العراق لإخراج الكتاب المقدس بكتابة متجانسة، وبفضل بعض التحسينات التي أدخلت على الخط ولا سيما على الحركات، ولكن بلاشير يحتمل أنه قد بذلت بعض الجهود في ذات الوقت لإتلاف جميع النسخ المصطبغة بالتأثيرات الشيعية، على أنهم لم يتوصلوا إلى ذلك تماما، وهو يقصد بذلك ما يسميه الشيعة مصحف فاطمة أو النسخة التي فيها ما يسمى لدى الشيعة بسورتي الولاية والنورين.

المبحث الرابع: موقفه من ترتيبه

زعم بلاشير أن الترتيب الحالي للقرآن وفقا لتدرج هبوطي في الطول يطابق بعض عادات الساميين حيث كان فقهاء اللغة العراقيون في القرنين الثامن والتاسع يبدؤون دواوينهم الشعرية بالقصائد الطويلة، ويرى بلاشير أن ترتيب المصحف العثماني هكذا كان نتيجة إحداث خلل لا دواء له في الترتيب التاريخي للنصوص بحسب نزولها ومن ثم فنحن -برأيه- نقرأ القرآن بتاريخ معكوس.

وقد أشاد بلاشير بطريقة المدرسة الألمانية في معالجة هذا الموضوع فقال: "إن نولدكه ونخبة من علماء الإسلاميات الألمان قد نجحوا في تحديد طريقة أخرى للبحث بفضل معالجتهم الجديدة للمسألة بكاملها في تاريخ القرآن، الذي ظهر من سنة ١٩١٩م إلى سنة ١٩٣٨م، لقد تنازل هؤلاء العلماء عن مطمحهم للاهتداء إلى تسلسل النصوص القرآنية لا لبس فيه فنجحوا في إعادة جمع هذه النصوص وفقا لمراحل متعاقبة حددوها بحسب الأسلوب من جهة وبحسب الموضوعات السياسية الموسعة في القرآن من جهة أخرى"(١).

ويعد بلاشير من أعمق المستشرقين تأثرا بطريقة نولدكه حتى رأى فيها الطريقة المثلى التي يجب أن يلتزم السير بها جميع المستشرقين لأنها تجعل قراءة المصحف سهلة وممتعة، فيقول: "إن إعادة ترتيب السور الذي اقترحه نولدكه ومدرسته ينال هنا كامل أهميته، إنه يلقي على المصحف أضواء مطمئنة، ويرد وضع النصوص إلى آفاق سهلة الإدراك لكونها مقرونة إلى السياق التاريخي المعقول، ثم إنه يعيد إلى محاولة القارئ الغربي معناها،

(١) المرجع السابق، ص٢٦.

ويلبي الرغبة في الفهم التي لا يمكننا بدونها أن نحرز أي تقدم"[١].

وبلاشير شأنه شأن سائر المستشرقين سواء في ذلك الفرنسيين وغيرهم على ضرورة البحث عن ترتيب زمني للسور طالما أن الترتيب الذي عليه القرآن حاليا ترتيب مفتعل ومصطنع وآلي، ويعبر عن الروح الفوضوية التي كان عليها العرب في ذلك الوقت، لقد حان الوقت لهجر هذا الترتيب والبحث عن ترتيب آخر، وقد عبر بلاشير عن هذه الرغبة بوضوح تام فقال: "من أجل فهم الكتاب المقدس للمسلمين تاريخيا يمكن الرجوع إلى التسلسل الزمني للإيحاءات التي يتألف منها من أجل مساعدة القارئ"[٢].

(١) المرجع السابق، ص٤٣.
(٢) المرجع السابق.

المبحث الخامس: موقفه من تفاسيره

يرى بلاشير أن تفسير القرآن بدأ في حياة النبي –صلى الله عليه وسلم– حينما كان الصحابة يسألونه عما غمض عليهم من الوحي فيبينه لهم، وبعد وفاة الرسول وجد كبار الصحابة أنفسهم في وضع مماثل على حد قولهم، ومن ثم فهو يرى أن تفسير القرآن ملازم للسلطة المرتبطة بهذا الوحي.

ويرى بلاشير أن تفسير القرآن قد استوجبته عدة صعوبات في فهم النص القرآني منها:

١- عدم ثبات الخط العربي حيث كان بشكله الذي كان حيئذ ناقصا مثيرا للغموض.

٢- تعدد القراءات واختلافها.

٣- وجود بعض الفرق كالشيعة وكل فرقة تحاول أن تؤيد عقائدها بشروحات تتعدى حرفية النص القرآني.

ويرى بلاشير أن التفسير القرآني قام على تفسيره مذهبان فكريان يمثلهما فئتان:

الفئة الأولى: ويقصد بهم المفسرون بالمأثور، وهذه الفئة كما يقول: "تشكل الأكثرية الساحقة وهم نفوس تقية تحترم الإجماع المطلق والمرجع الحجة، ويهمها بالنتيجة ألا تحمل مطلقا محمل الصدق ما يستند إلى وجهات نظر شخصية فقط".

الفئة الثانية: ويقصد بهم المفسرون بالرأي، وتتميز بقبولهم للتحليل، وبحثهم مجددا في المسائل الكلامية والأخلاقية، وهم يستوحون مواقفهم الخاصة من رفضهم التخاذل أمام كل ما يعكس حججهم، أي أنهم يميلون إلى جانب العقل ويعتبرونه مصدرا أساسيا في فهم النص القرآني.

كما يرى بلاشير في ذات الوقت أن الفئتين يجمعهما إجلال النص القرآني، والإيمان بإعجازه، والاهتمام بالدفاع عن الدين.

لكنه يرى أن الفئة الأولى يميزها اعترافها بإجلالهم لما يعجز الوصف، بينما يميز الفئة الثانية اجتهادها دائما لزيادة التعمق في حكمة الرسالة القرآنية وعجائبها.

ويرى بلاشير أن تعدد التفاسير ناتج عن تعدد الأمزجة، وليس تعدد الاتجاهات الدينية فحسب.

وقد صنف بلاشير اتجاهات تفسير القرآن في أربعة اتجاهات رئيسة:

الاتجاه الأول: وهو اتجاه الأغلبية المطلقة من المفسرين وهو الاتجاه السني الذي يعتمد على التفسير بالمأثور من الحديث والروايات والقصص، ويمثل هذا الاتجاه الإمام الطبري الذي يصفه بأنه أبو التفسير القرآني، ويصف تفسيره المسمى (جامع البيان في تأويل القرآن) بأنه تكديسي أي مهتم بتكديس الروايات والأحاديث وجمعها.

الاتجاه الثاني: اتجاه المتكلمين الذين يحاولون التوفيق بين النص القرآني وبين العقل ويميلون إلى تأويل النصوص المتعلقة بالصفات والبحث عن حل مشكلة القدر بالتقليل من الجبرية، ويخص منهم بالاهتمام المعتزلة باعتبارهم أكثر فرق المتكلمين تحمسا للعقل، ويمثل هذا الاتجاه الزمخشري صاحب الكشاف.

الاتجاه الثالث: وهو التفسير الرمزي أو الإشاري الذي يستعمله المتصوفة وقد لقي هذا الاتجاه معارضة شرسة من أهل السنة، ويمثله الكاشي.

الاتجاه الرابع: وهو التفسير الذي يهتم بالدفاع عن العقيدة دون أن يتخلى عن العداء للمعتزلة أو ينتهج طريقة الطبري التكديسية التي تستند إلى

الحديث الصرف، واعتمدوا بدلا منها على الشرح العقلي والمباحثة التي ترتكز على المحاجة الكلامية، ويمثل هذا الاتجاه فخر الدين الرازي في كتابه المسمى مفاتيح الغيب.

ثم تتبع بلاشير بعد ذلك عددا من المصنفات في التفسير منها ما جاء في صورة مطولات اهتمت بالمسائل النحوية والقراءات كتفسير البحر المحيط لأبي حيان، ومنها ما جاء في صورة المختصرات كتفسير البيضاوي، والدر المنثور للسيوطي.

كما تتبع تلك الثورة في مجال التفسير التي نشأت في منتصف القرن التاسع عشر الميلادي، وكانت نتيجة الواقع الذي عاشه العالم الإسلامي في تلك الفترة حيث مقاومة الاستعمار الغربي، وحركات الدعوات الإصلاحية مثل الحركة الوهابية في الجزيرة العربية، وحركة التجديد التي قام بها الشيخ محمد عبده في مصر، وواصلها من بعده تلميذه الشيخ محمد رشيد رضا ، وقد توصلت هذه الحركة إلى جعل التفسير القرآني أحد ركائز الإصلاح الديني الذي قام به –على حد تعبير بلاشير–.

وقد أشار إلى اتجاه جديد ظهر مؤخرا في التفسير الكبير للمراغي، الذي اعتبره نموذجا للأعمال المعادية للمتطرفين برفضه أن يقيم وزنا للتفسير الشعبي الذي يقدره مؤلفو المواعظ، وبازدرائه للاستطرادات النحوية والأسلوبية، وباحتراسه من الحالات شديدة الاعتماد على العقل[١].

(١) المرجع السابق.

المبحث السادس: موقفه من علوم القرآن

عندما نتعرض لموقفه في هذا الكتاب من علوم القرآن نجده يركز على علم القراءات بالذات ويتناوله باهتمام بالغ.

وهو يعرف القراءات بأنها "عبارة عن الأوجه التي يمكن قراءة المصحف عليها، وهي تتناول وجوها من التلفظ الصامت والمحرك وفروقا طفيفة في التفاصيل لا تؤثر على معنى النص بشكل عام".

وكذلك تحدث عن علم الفواصل وعرفه بأنه "عبارة عن وقفات تتعلق بفصل الآيات".

وقد ذكر أنه كان هناك في بداية الأمر قراءات متعددة، ثم استقر الرأي على اعتماد سبعة قراءات، ولم يكن في ذلك إشكال حتى استخدم تعدد القراءات في التأويل العقلاني أو الشيعي، ولكن الفقهاء الذين ينتمون لمذهب السلطة –ويقصد به مذهب أهل السنة– تصدوا لتلك التأويلات التي هددت قدسية المصحف وأدت إلى تعميق الاختلافات العقدية والشرعية.

ولكن بلاشير يعود فيقرر أن بعض الصحابة كابن مسعود شعروا بالجور لأن مصاحفهم لم تعتمد في المصحف الرسمي.

لكنه يعود فيفسر تعدد القراءات تفسيرا سياسيا، حيث يرى أن الخوارج والشيعة قد استغلوا هذه المعارضة لصالحهم، وأخذت فرضية الحذف والإفساد تظهر شيئا فشيئا كتشكيك طائفة من الخوارج في أن سورة يوسف نص قرآني صحيح، وكتشكيك الشيعة في احترام الخليفتين أبي بكر وعمر لنص القرآن، واتهامهم للأمويين بأنهم حذفوا من المصحف جميع المقاطع التي تثبت حق علي بالخلافة.

بل زعم بلاشير كذلك أن بعض علماء المعتزلة قد وجهوا سلسلة من الانتقادات في وجه مقاطع قرآنية تحوي تهجما على بعض أعداء النبي[(١)].

(١) المرجع السابق.

المبحث السابع: موقفه من ترجمته

رصد بلاشير من خلال هذه المقدمة موقف أوربا العدائي الذي اعتمد على التشويه المتعمد للقرآن ولشخصية الرسول -صلى الله عليه وسلم-، ففي العالم البيزنطي الذي شعر بالخطر الذي داهمهم جراء الفتح الإسلامي "كانوا وقتئذ يتصورون دعوة محمد عمل منشق يدعي أنه ملهم من الله، بينما كان في الواقع قد تلقى تعليمه من راهب خارج عن العقيدة القويمة"[1].

وقد ساعد على تلك النظرة المشوهة -برأيه- الجهل بلغة القرآن، وقلة الاحتكاك المباشر بالمسلمين مع عدم وجود ترجمة كاملة للقرآن الكريم بلغتهم، اللهم إلا ترجمة مقاطع معينة تتعلق ببعض القضايا الجدلية بين الإسلام والنصرانية كشخصية المسيح وأمه مريم وما دعاه بلاشير بالأخلاق الجنسية، باستثناء الطوائف النصرانية التي عاشت في كنف الدولة الإسلامية كمصر والشام وعرف أهلها اللغة العربية أغنتهم عن الحاجة إلى ترجمة لمعاني القرآن الكريم، ثم بدأ يسرد ترجمات القرآن الكريم في الغرب سردا تاريخيا حيث يرى أنها بدأت في طليطلة على يد الأسبان وهو ما "يتعلق بلا ريب بالعداء الذي كان منصوبا بصورة مستمرة بين المسيحيين الأسبان، وبين المقاطعات الجنوبية لشبه الجزيرة الأسبانية حيث كانت تتوغل سيادة الثقافة والتمدن العربي" ورجح أن يكون ذلك قد تم تحت تأثير روما والبابا، وقد وصف هذه الترجمة بأنها لا تبدو أمينة وكاملة للنص.

ثم سرد ترجمات غيرهم من المستشرقين فرنسيين وإنجليز وإيطاليين، وختم المقدمة بالإشادة بكتاب تاريخ القرآن لأستاذه نولدكه وأهميته في دراسة القرآن وفهمه.

كما بين بلاشير في مقدمة كتابه عن القرآن أن ترجمة الأوربيين

(١) القرآن .. نزوله تدوينه ترجمته تأثيره، بلاشير، ص١٢.

للقرآن الكريم كانت بدافع الحقد الصليبي المعادي للإسلام وليست لهدف علمي كما يدعي بعضهم. يقول: "وإننا لنرجح أنه تحت تأثير روما والبابا قد راودت بطرس المحترم على إثر رحلة قام بها إلى إسبانيا بين السنتين ١١٤١م و١١٤٣م، فكرة تكليف (روبيرت دوريتين) المستفيد من جمعية رهبان سيتو، بترجمة الكتاب الذي يبجله المسلمون المغاربة إلى اللغة اللاتينية، كانت المبادرة قد انبثقت عن الحروب الصليبية، هذا ما تثبته الرسالة التي وجهها بطرس المحترم إلى القديس برنار مرفقة بنسخة من الترجمة التي كانت قد أعدت، كما انبثقت في الوقت نفسه عن الرغبة الشديدة لإزالة كل أثر للإيمان الأول من أذهان المسلمين المهتدين[١].

كما أقر بلاشير بأن هذه العناية الغربية بترجمة القرآن كان يغلب عليها الروح العسكرية والحماسة التبشيرية فقال: "وفي رأينا أن الأهمية التي اتخذها القرآن في هذا المجال قد تجلت في الروح العسكرية التي استمرت حميتها حتى بداية القرن الرابع عشر، دليلنا على ذلك في الحماسة التبشيرية عند ريمون لول"[٢].

كما أقر بلاشير بأن هذه الترجمات لم تكن أمينة بل شابها التحريف والنقص، فيقول: "ولا تبدو الترجمة الطليطلية للقرآن بوجه من الوجوه أنها كانت ترجمة أمينة وكاملة للنص، وهذا ما نستخلصه من بعض البيانات الصادرة عن النشرات التي أعادت نشر عمل روبير دوريتين"[٣].

---

(١) المرجع السابق، ص١٤، ١٥.
(٢) المرجع السابق، ص١٥.
(٣) المصدر السابق، ص١٥.

المبحث الثامن: موقفه من تأثير القرآن في الحياة الإسلامية والمجتمع الإسلامي

عبر بلاشير في الفصل الأخير من كتابه عما لاحظه من التأثير الجماعي والمجتمعي للقرآن في حياة المسلمين، ومدى إيمانهم بالقرآن وإعجازه، وتشكيل أفكارهم وقيمهم الاجتماعية وعاداتهم وما يستحسنون وما يرفضون، يقول بلاشير:

"علينا أن نأخذ بعين الاعتبار أولا قدر الافتتان الذي أثر به الكتاب المقدس في المؤمن، ثم الاستجابات الجماعية لتشرب الأسلاف للواقعة القرآنية، وأخيرا المسائل التي طرحها في الزمن المعاصر، إما الرفض وإما الخضوع المطلق لحد ما لديانة يشكل القرآن ركنها الأساسي"(١).

كما عبر بلاشير عن مكانة القرآن في نفوس المسلمين وإجلالهم له وعنايتهم على اختلاف طبقاتهم الاجتماعية بتعليمه لأولادهم في مرحلة عمرية مبكرة، فيقول:

"إن أول ما يسترعي الانتباه في العالم الإسلامي هو ما للقرآن من التأثير العميق على الفرد سواء أكان ذلك الفرد رجلا أو امرأة، إن هذا الواقع يفسر بالتشرب نفسه الذي يتلقاه الطفل مهما كان أصله وكانت مرتبته، يبتدئ هذا التشرب لدى المسلم الصغير منذ سن الخامسة أو السادسة ويمتد في المتوسط فترة ست أو سبع سنوات، وقد يطول عند كثير من المراهقين إلى أبعد من ذلك بكثير"(٢).

وهو يتتبع تطور مدارس تحفيظ القرآن من الشكل البدائي إلى المدارس المتحضرة، وما يتمتع به معلمو القرآن من احترام المجتمع، وكذلك

(١) المرجع السابق، ١٥٨، ١٥٩.
(٢) المصدر السابق، ١٥٩.

ما يشعر به الدارس من مكانة في نفسه بعد تعلمه القرآن، كما تتبع أساليب تعليم القرآن التي كانت تعتمد أولا على التلقين الشفهي فقط، ثم تطورت إلى التعليم بالكتابة، وما يبدأ به المتعلم أولا من القرآن وهو الفاتحة وقصار السور التي توجد في نهاية المصحف وتشتمل على قضايا العقيدة، ثم يتدرج بعد ذلك في تعلم السور الأطول أو يكتفي بما تعلمه من قصار السور.

ويركز بلاشير على أهمية تعلم القرآن بالنسبة للمسلم وكيف أن ذلك يعد فارقا مهما وأساسيا بينه وبين غير المسلم، ويختم حديثه بعبارات تظهر مدى ما يمثله تعليم القرآن من أهمية بالنسبة لهذه الأمة بحيث تعتبره ضمانة لحفظ القرآن من الضياع تتوارثها الأجيال، وما يحققه ذلك التعليم من قوة إيمانية للفرد والمجتمع، بحيث يصعب بل يستحيل محاربة هذا التعليم، فيقول:

"بهذا يثبت كل ما ينطوي عليه التشرب القرآني من خصائص مميزة للفرد المسلم، ومهما بلغت مقاومتنا قولا وعملا لهذا لتعليم وطرائقه الهرمة فإن هذا التعليم يظل ضمانة تتخذها الأمة بصدد الوحي الذي تلقاه محمد، بهذا يتخلد من جيل إلى جيل الشعور بأن النص الذي أنزله الله هو في عداد الأجزاء المكملة للخلق، وإن هذا النص هو من الخلق بمثابة الجوهر الحي وأنه لم ينح في كتاب جامد وغريب عن السريرة، وإن يكن ذلك الكتاب جليلا ولا ريب"(١).

ويقرر بلاشير أن الطفل لا يكون معنيا بفهم القرآن بل كل ما يعنيه في تلك المرحلة أن يتقن حفظ درسه غيبا وكتابته بالخط التقليدي، فإذا ما انتقل إلى مرحلة المراهقة فإنه ينتقل إلى الرغبة في فهم ما سبق حفظه، وذلك يزوده بثقافة قوية في الحديث، ويعوزه أيضا إلى تعلم علوم اللغة

---

(١) المرجع السابق، ص١٦٣.

كالنحو والصرف والأدب العربي وعلم البيان، وبالرغم من أن تعلمه لهذه العلوم قد يتعدى ما يحتاجه لفهم القرآن لكن يبقى القرآن هو الركن الأساسي للتثقيف -على حد تعبيره-، ويتأكد ذلك إذا ما تخصص الطالب في علوم الفقه.

الفصل الثالث

نقد موقف بلاشير من القرآن

المبحث الأول: نقد موقفه من نزول القرآن

ذكرنا في الفصل السابق أن بلاشير قد أرجع كلمة قرآن إلى أصل سرياني مخالفا بذلك ما أطبق عليه العلماء من عربية الكلمة، وسنذكر فيما يلي موجزا لأقوال علماء اللغة في تعريف كلمة "قرآن".

اختلف العلماء في أصل لفظ القرآن هل هو مشتق أو غير مشتق إلى فريقين:

الفريق الأول: ذهب إلى أن لفظ القرآن اسم علم على هذا الكتاب العزيز الذي هو كلام رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلب محمد خاتم النبيين، وهو غير مشتق ولا مهموز، وقد نقله السيوطي عن الشافعي ورجحه، واستدل له بقراءة ابن كثير بغير همز حيث وقع.

وقال: "وَأَمَّا الْقُرْآنُ فَاخْتُلِفَ فِيهِ فَقَالَ جَمَاعَةٌ: هُوَ اسْمُ عَلَمٍ غَيْرُ مُشْتَقٍّ خَاصٌّ بِكَلَامِ اللَّهِ فَهُوَ غَيْرُ مَهْمُوزٍ وَبِهِ قَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ وَهُوَ مَرْوِيٌّ عَنِ الشَّافِعِيِّ أَخْرَجَ الْبَيْهَقِيُّ وَالْخَطِيبُ وَغَيْرُهُمَا عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ يَهْمِزُ قَرَأْتَ وَلَا يَهْمِزُ الْقُرْآنَ وَيَقُولُ: الْقُرَانَ اسْمٌ وَلَيْسَ بِمَهْمُوزٍ ولم يؤخذ من قرأت وَلَكِنَّهُ اسْمٌ لِكِتَابِ اللَّهِ مِثْلَ التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ"(١).

ولكن هذا الرأي فيه إشكال وهو تشبيه لفظ القرآن بلفظي التوراة والإنجيل وهما لفظان أعجميان على الصحيح، ومشتقان من ألفاظ في لغاتهما الأصلية، أما كلمة القرآن فهي كلمة عربية بدليل أنه لم يستنكرها العرب حين سمعوها، ولم يستغربوها، بل لم يكن جرسها بعيدا عن لغتهم

---

(١) الإتقان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط/ الهيئة المصرية العامة للكتاب-القاهرة، ١٣٩٤هـ-١٩٧٤م، ١/١٨١.

واشتقاقاتها التي يعرفونها بسليقتهم.

أما استدلال الإمام السيوطي رحمه الله لذلك بقراءة نافع، فليس فيه دليل على أن أصلها بغير الهمز، إذ يجوز أن تكون القراءة جرت على لهجة بعض العرب في إسقاط الهمزة من بعض الكلمات، ومعلوم أن ذلك وارد في بعض لهجات العرب، وبعض العرب يسهل الهمز، وبعضهم يبدلها حرف علة، وبعضهم يحققها، وبعضهم يبالغ في تحقيقها بالوقوف على ما قبلها أحيانا، وقد وردت القراءات السبع بكل هذه القراءات، فلا وجه للاحتجاج ببعضها على الأصل الاشتقاقي للكلمة.

الفريق الثاني: ذهب إلى أنه مشتق، ثم افترقوا في أصل اشتقاقه إلى فرقتين:

الفرقة الأولى: قالت إنه غير مهموز وعلى هذا يكون الاسم مشتقا من مادة "قر ن" ثم اختلفوا:

١- فقالت طائفة منهم الأشعري: إنه مشتق من قرنت الشيء بالشيء إذا ضممته إليه، ومنه قولهم: قرن بين البعيرين إذا جمع بينهما ومنه سمي الجمع بين الحج والعمرة في إحرام واحد قران.

٢- وقالت طائفة منهم الفراء: إنه مشتق من القرائن جمع قرينة لأن آياته يشبه بعضها بعضا، ويصدق بعضها بعضا.

الفرقة الثانية: قالت: إنه مهموز والهمزة أصلية ثم افترقوا أيضا إلى فرقتين:

فقالت طائفة منهم اللحياني: إن القرآن مصدر مهموز بوزن الغفران مشتق من قرأ بمعنى تلا سمي به المقروء تسمية للمفعول بالمصدر، ومنه قوله تعالى: {إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ}(١) أي قراءته.

---

(١) سورة القيامة الآيتان: ١٧-١٨.

٢- وقالت طائفة منهم الزجاج: إنه وصف على وزن فعلان مشتق من القَرْء بمعنى الجمع ومنه: قرأ الماء في الحوض إذا جمعه[١]، قال ابن الأثير: "وسمي القرآن قرآنًا لأنه جمع القصص والأمر والنهي والوعد والوعيد والآيات والسور بعضها إلى بعض"[٢]، وقيل: سمي به لأنه يجمع السور التي يحويها ويضمها بعضها إلى بعض، من قولك: ما قَرَأَت الناقةُ سَلًى قَطُّ، أي: ما ضَمَّت في رحمها ولدًا، وكذلك ما قَرَأَتْ جَنِيناً. وأنشد أبو عُبَيْدة:

هِجَانِ اللَّونِ لَمْ تَقْرَأْ جَنِينَا

وقال في قوله: {إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ} أي تأليفه.

وقال بعض العلماء: (تسمية هذا الكتاب قُرْآناً من بين كتب الله لكونه جامعا لثمرة كتبه) بل لجمعه ثمرة جميع العلوم.

إذن فهناك إجماع من علماء اللغة على عربية الكلمة وإن اختلفوا هل هي مشتقة أو لا، وفي أصل اشتقاقها.

وبلاشير لم يذكر لنا الكلمة السريانية التي يعزو إليها اشتقاق كلمة (قرآن) ولا الدليل على اشتقاقها منها، ناهيك عن أن هذا القول مخالف لإجماع أهل اللغة.

وعلى فرض صحة كلامه من أن كلمة قرآن مشتقة من أصل سرياني ثم صارت من الكلمات المعربة بالاستعمال، وهذا أمر ليس بغريب إذ إن اللغات الحية تتبادل المفردات ويتأثر بعضها ببعض، فهل يعني ذلك أن آيات القرآن نفسها قد تأثرت بالسريانية أو بغيرها؟ وأي صلة بين اشتقاق كلمة قرآن وبين ما أراد بلاشير الإيماء إليه من تأثر القرآن بغيره؟

---

(١) دراسات في علوم القرآن، فهد الرومي، ط/١٢، بدون، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م، ص١٩.
(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق: طارق أحمد الزاوي، محمود محمد الطناحي، ط/ المكتبة العلمية-بيروت، ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م، ٤/٣٠.

وقد يقع أيضا بعض التشابه في الكلمات بين اللغات على تباعد ما بينها، كما قال الإمام الشافعي: "لا ننكر إذا كان اللفظ قيل تعلما، أو نطق به موضوعا، أن يوافق لسان العجم أو بعضها قليلا من لسان العرب، كما يتفق القليل من ألسنة العجم المتباينة في أكثر كلامها، مع تنائي ديارها، واختلاف لسانها، وبعد الأواصر بينها وبين من وافقت بعض لسانه منها"[١].

ومعلوم أن كلمة (قرآن) خصوصا ومادة القراءة عموما لم تكن شائعة قبل الإسلام كما هو الحال بالنسبة لمثيلاتها من الألفاظ الشرعية كالصلاة والصيام والزكاة والحج، ولم ترد في شيء من أشعار العرب في الجاهلية بحسب ما وصلنا منها إلا في بيت عمرو بن كلثوم إذ يقول:

ذراعي عطيل أدماه بكر   هجان اللون لم تقرأ جنينا

أي لم تضم في رحمها جنينا.

ولكن الحكم على عربية الكلمة له وسائل أخرى غير وجوده في أشعار العرب، بل هناك وسائل أخرى كالاشتقاق، وقد ذكرنا آراء العلماء في اشتقاق كلمة قرآن من القراءة أو من القرينة، أو من القران أو من القرء.

ولو كانت كلمة (قرآن)غير عربية كما ادعي بلاشير وأضرابه من المستشرقين لاستنكرت العرب ذلك وقالوا كيف يكون هذا القرآن عربيا ويسمى باسم غير عربي، أما إنهم لم يدَّعوا ذلك وهم الذين لم يجدوا مجالا للطعن فيه بالافتراء والكذب إلا وخاضوه، ولم يقولوا مثلا إذ سمعوا كلمة قرآن وما القرآن؟ كما تظاهروا باستغراب كلمة الرحمن فقالوا وما الرحمن؟ وحكى القرآن عنهم ذلك في قوله تعالى: {﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ﴾}[٢]، رغم وجود الكلمة في استعمالاتهم واشتقاقها من مادة عربية

---

(١) الرسالة، تحقيق: أحمد محمد شاكر، ط/٢، مكتبة التراث- القاهرة، ١٣٩٣هـ، ١/٤٤، ٤٥.

(٢) سورة الفرقان الآية ٦٠.

صريحة ومعروفة، كل ذلك يدل على أنهم لم يستنكروا الكلمة بذائقتهم العربية وسليقتهم اللغوية، ولم يجدوا فيها مطعنا، بل استساغوها وقبلوها وعرفوها.

إن بلاشير يريد أن يوحي للقارئ بأن القرآن مستمد من أصول غير عربية، وهو زعم توارد في كتابات كثير من المستشرقين وقد سبقهم إليه مشركو العرب، ورد عليهم القرآن بقوله: {وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ}(١).

إن من يعرف النبي صلى الله عليه وسلم في نشأته منذ صباه وحتى بعثته يعلم تماما أنه لم يختلف إلى معلم ولم يدرس كتابا، بل ولم يكن يعرف القراءة والكتابة فهو أمي كما وصفه القرآن في أكثر من موضع، ومن ثم فلا مجال لهذا الزعم الباطل.

"ولكي نفترض صحة هذا الزعم فلابد أن محمدا كان يعرف العبرية والسريانية واليونانية، ولابد أنه كان لديه مكتبة عظيمة اشتملت على كل نصوص التلمود والأناجيل المسيحية ومختلف كتب الصلوات وقرارات المجامع الكنسية، وكذلك بعض أعمال الأدباء اليونانيين وكتب مختلف الكنائس والمذاهب المسيحية، فهل يمكن أن يعقل هذا الكلام الشاذ لهؤلاء الكتاب؟ وهو كلام لا برهان عليه"(٢).

"إن صاحب هذا القرآن لم يكن ممن يرجع بنفسه إلى كتب العلم ودواوينه، لأنه باعتراف الخصوم كما ولد أميًّا نشأ أميًّا وعاش أميًّا، فما كان يومًا من الأيام يتلو كتابًا في قرطاس ولا يخطه بيمينه، فلا بد له من معلم يكون قد وقفه على هذه المعاني لا بطريق الكتابة والتدوين بل بطريق الإملاء والتلقين، هذا هو حكم المنطق .. فحسب الباحث فيه أن نحيله على التاريخ

---

(١) سورة النحل الآية ١٠٣.
(٢) دفاع عن القرآن ضد منتقديه، عبد الرحمن بدوي، ط/ الدار العالمية للكتب والنشر، ١٤١٩هـ، ص٢٤.

وندعه يقلب صفحات القديم منه والحديث، والإسلامي منه والعالمي، ثم نسأله: هل قرأ فيه سطرًا واحدًا؟ يقول: إن محمد بن عبد الله بن عبد المطلب لقي قبل إعلان نبوته فلانًا من العلماء فجلس إليه يستمع من حديثه عن علوم الدين، ومن قصصه عن الأولين والآخرين.

ليس علينا أن نقيم برهانًا أكبر من هذا التحدي لإثبات أن ذلك لم يكن، وإنما على الذين يزعمون غير ذلك أن يثبتوا أن ذلك قد كان، فإن كان عندهم علم فليخرجوه لنا إن كانوا صادقين."(١).

أما قوله إن كلمة قرآن تعني التلاوة بشكل مرتفع، فقول غريب لا دليل عليه ولم يذهب إليه أحد من علماء اللغة، ولا ندري من أين جاء بهذا القول الذي لم يعرفه علماء العربية؟!

ثم لا أدري ما السبب في أن بلاشير يريد دائما أن يتعامل مع القرآن بنفس الطريقة التي عليها كتابه المقدس حيث يقول: " إن كلمة قرآن فضلا عن كونها مزودة بجرس موسيقي، تعبر أساسا عن فكرة التبليغ بالقول، والتبشير الديني، والرسالة التي أخذت عن ملاك، وفي وقت قريب من نهاية دعوة محمد فقط، عندما ابتدأ الكلام المنزل يثبت بالكتابة والتدوين، أمكن لكلمة قرآن أن تأخذ المعنى العام للكتاب المقدس بحسب المفهوم الذي نعرفه نحن، وقد أعطينا لكلمة قرآن هذا المعنى بطريقة مغايرة للعقيدة، لأن الكتاب المقدس يقابل لفظة كتاب في العربية التي تعني تماما النص المكتوب"(٢).

وههنا نجده يدعي أن القرآن لم يسم بالكتاب إلا في أواخر حياة النبي صلى الله عليه وسلم كما ذكرنا من قبل حيث تم تدوين الآيات وأخذت شكل الكتاب المقدس المعروف عند أهل الكتاب، وهذا إن دل فإنما يدل على جهل

(١) النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن الكريم، محمد عبد الله دراز، ط/ دار القلم للنشر والتوزيع، ١٤٢٦هـ، ص٨٥، ٨٦.
(٢) القرآن .. نزوله . تدوينه . ترجمته . تأثيره، بلاشير، ص٢٣، ٢٤.

مطبق ورغبة جامحة في إثبات أي وجه شبه بين القرآن وبين كتابهم المقدس ولو تعسفا، ففي كثير من الآيات والسور المكية نجد تسمية القرآن باسم الكتاب، خذ مثلا سور الحواميم وهي السور السبع التي تبدأ بالحروف {حم} وهي مكية باتفاق نجدها جميعا يذكر في مطلعها لفظ الكتاب، قال تعالى: {حم * تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ}(١)، {حم * تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُون}(٢)، {حم * وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ}(٣)، {حم * تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ}(٤).

"وقد روعي في تسميته قرآنًا كونه متلوًّا بالألسن، كما روعي في تسميته كتابًا كونه مدونًا بالأقلام، فكلتا التسميتين من تسمية الشيء بالمعنى الواقع عليه، وفي تسميته بهذين الاسمين إشارة إلى أن من حقه العناية بحفظه في موضوعين لا في موضع واحد، أعني أنه يجب حفظه في الصدور والسطور جميعًا، أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى، فلا ثقة لنا بحفظ حافظ حتى يوافق الرسم المجمع عليه من الأصحاب، المنقول إلينا جيلًا بعد جيل على هيئته التي وضع عليها أول مرة. ولا ثقة لنا بكتابة كاتب حتى يوافق ما هو عند الحفاظ بالإسناد الصحيح المتواتر، وبهذ العناية المزدوجة التي بعثها الله في نفوس الأمة المحمدية اقتداءً بنبيها بقي القرآن محفوظًا في حرز حريز، إنجازًا لوعد الله الذي تكفل بحفظه حيث يقول: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ}(٥)، ولم يصبه ما أصاب الكتب الماضية من التحريف والتبديل وانقطاع السند، حيث لم يتكفل الله بحفظها، بل وكلها إلى حفظ

(١) سورة غافر الآيتان ١، ٢.
(٢) سورة فصلت الآية ١ – ٣.
(٣) سورتا الزخرف والدخان الآيتان ١، ٢.
(٤) سورتا الجاثية والأحقاف الآيتان ١، ٢.
(٥) سورة الحجر الآية ٩.

الناس فقال تعالى: {إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ}(١)، أي بما طلب إليهم حفظه"(٢).

أما عن تقسيمه لسور القرآن لأربعة مراحل ثلاثة منها في مكة والرابعة في المدينة فقد تأثر فيه بأستاذه نولدكه الذي تأثر هو في ذلك بسلفه ويل، "وما جنح إليه بعض المستشرقين من ترتيب القرآن على أسباب النزول، وتقسيمه إلى مراحل لا ضرر فيه لذاته، إذ أباح الخوض في مثله علماؤنا الأعلام، وإنما يتجسد الضرر فيه حين يتجافى هذا الترتيب على الروايات الصحيحة ويأخذ بالرأي المرتجل الفطير"(٣).

لكن الذي ينبغي أن نتوقف عنده هو أنه كان يرمي من خلال هذا التقسيم إلى غاية لا تتفق وروح الدعوة الإسلامية، حيث إنه يصطدم مع واقع الأحداث، ومسلمات العقل وصحيح الرواية، ذلك أن المدة التي جهر فيها النبي –صلى الله عليه وسلم– بالدعوة منذ نزول أوائل المدثر كانت متشابهة، وليس بينها خلافات جوهرية، لكن مشكلة المستشرقين أنهم لم يستفيدوا مما قرره علماء المسلمين من الاعتماد على الروايات الصحيحة، ولو أنهم فعلوا ذلك ودرسوا علوم القرآن دراسة موضوعية لاهتدوا إلى الحق ولكنهم اختطوا لأنفسهم مناهج غير علمية فضلوا وزاغوا(٤).

وعندما قسم بلاشير القرآن إلى مراحل فإنه بنى هذا التقسيم على فرضية خيالية هي التطور والتغيير الذي ظن أن القرآن قد مر بهما بين كل

(١) سورة المائدة: ٤٤.
(٢) النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن الكريم، محمد عبد الله دراز، ص٤١، ٤٢.
(٣) مباحث في علوم القرآن، صبحي الصالح، ط/٢٤، دار العلم للملايين، ٢٠٠٠م، ص١٦٩.
(٤) انظر: قضايا قرآنية في الموسوعة البريطانية نقد مطاعن ورد شبهات، فضل حسن عباس، ط/٣، دار الفتح-عمان، الأردن، ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م، ص١٩١.

مرحلة وأخرى سواء من حيث الموضوعات التي تناولها أو من حيث الأسلوب، محاولا إيهام القارئ أن هناك فرقا شاسعا بين متنزلات كل مرحلة وأخرى حتى بلغ به الأمر أنه ادعى أن بعض سور القرآن لا يوجد تناسب أو ترابط بين آياتها كما ادعى ذلك في سورة النور.

والواقع أن من يتدبر القرآن تدبرا حقيقيا بعيدا عن روح التعصب والادعاء يجد الترابط والتناسب بين آيات القرآن الكريم وسوره على الترتيب المصحفي المعروف على نحو بديع، يظهر جليا في بعضها ويدق بحيث يحتاج إلى مزيد تدبر أحيانا أخرى، فكأنه وحدة واحدة، وهو هكذا لا ترى فيه قفزا غريبا أو مستهجنا بين الموضوعات، بل تجده يتنقل بينها بسلاسة تأخذ بالألباب، وقد اهتم كثير من العلماء بما أسموه علم المناسبات بين الآيات والسور، ليبين الحكمة الإلهية في ترتيبها وتناغم موضوعاتها، فجاء كتاب أبي جعفر الغرناطي ت ٧٠٨هـ، المسمى (البرهان في تناسب سور القرآن) من المؤلفات التي عنيت بهذا الموضوع وخصته، حيث تتبع فيه مؤلفه سور القرآن بحسب ترتيب المصحف من سورة أم القرآن إلى سورة الناس، مبينا التناسب بين نهاية كل سورة وبداية السورة التي تليها، والتناسب في الموضوعات بين السورتين، وكذلك كتاب أسرار ترتيب القرآن للحافظ السيوطي حيث قرر أن كل سورة هي كالمتممة لما قبلها والممهدة لما بعدها، كما اهتم بالمناسبات بين الآيات والسور بعض المفسرين كالفخر الرازي وابن عطية، وكذلك علماء علوم القرآن كالزركشي في كتابه البرهان.

يقول الفخر الرازي في تفسيره: "أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط"[(١)].

وقال بعض الأئمة: "من محاسن الكلام أن يرتبط بعضه ببعض لئلا

(١) مفاتيح الغيب، ط/٣، دار إحياء التراث العربي- بيروت، ١٤٢٠هـ، ١١٠/١٠.

يكون منقطعاً وهذا النوع يهمله بعض المفسرين أو كثير منهم، وفوائده غزيرة".

وقال بعض المشايخ المحققين: "قد وهم من قال لا يطلب للآي الكريمة مناسبة لأنها على حسب الوقائع المتفرقة، وفصل الخطاب أنها على حسب الوقائع تنزيلاً وعلى حسب الحكمة ترتيباً فالمصحف كالصحف الكريمة على وفق ما في الكتاب المكنون مرتبة سوره كلها وآياته بالتوقيف، وحافظ القرآن العظيم لو استفتي في أحكام متعددة أو ناظر فيها، أو أملاها لذكر آية كل حكم على ما سئل وإذا رجع إلى التلاوة لم يمثل كما أفتى، ولا كما نزل مفرقاً بل كما أنزل جملة إلى بيت العزة ومن المعجز البين أسلوبه الباهر فإنه {كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ}(١)، وهذا الذي عليه جمهور العلماء في مسألة التناسب بين السور"(٢).

وقال الشيخ عبد الفتاح القاضي: "جميع الآيات والسور متماسكة الأطراف، جيدة السبك، متصل بعضها ببعض اتصالا محكم العرى، لا انفصام لها، حتى صارت الآيات والسور آخذا بعضها بحجزة بعض، أخذا يفوت المعنى القرآني البليغ بانفكاكه، وكانت كل آية أو سورة بمنزلة الجزء الذي لا قوام لكله إلا به، وكان القرآن العظيم جميعه بعد التوقيف جملة واحدة، وصارت كل سورة لا غنى لها عما قبلها، ولا يستغني عنها ما بعدها، وكل آية لا يقع موقعها سواها، ولا ريب أن هذه الدرجة العليا للبلاغة التي أخرست البلغاء، وأدهشت الفصحاء والخطباء، من العرب أرباب اللسن وملوك

---

(١) سورة هود الآية ١.
(٢) انظر: مناسبات الآيات والسور، أحمد حسن فرحات، مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، العدد ١٠، ص٤٤.

الكلام"[1].

وصدق الله تعالى حيث قال: {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا}[2].

وأول ما نلاحظ تفصيلا على تقسيم بلاشير لسور القرآن الكريم على أربعة مراحل أنه يطلق حكما عاما على المرحلة المكية الأولى حيث يدعي أن نصوص هذه الفترة لم تسلط الأضواء على عقيدة التوحيد، بل يدعي أن سورة النجم تحتوي على آثار تردد في شجب عبادة ثلاث من آلهة المكيين في الجاهلية.

ونناقش هذا الادعاء من جهتين:

الأولى: عدم تسليط هذه المرحلة الأضواء كما يدعي على عقيدة التوحيد وهو ادعاء تبطله سورة النجم نفسها، تأمل قوله تعالى: {وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى * وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى * وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا * وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى * مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى * وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى * وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى * وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى * وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى * وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى * وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى}[3].

ولاحظ تكرار كلمتي {وأنه هو} اللتين تؤكدان على وحدانيته تعالى في أفعاله وأنه هو وحده المتصرف في هذا الكون من تقليب أحوال البشر بين الضحك والبكاء، وإحياء الخلق وإماتتهم، وخلق النوعين الذكر والأنثى من نفس النطفة، وإعادتها إلى الحياة بالبعث بعد الموت، وأنه هو الذي يهب النعم والأرزاق للناس، وأنه هو رب العالم العلوي بنجومه وكواكبه، وأنه هو

(١) المصحف الشريف أبحاث في تاريخه وأحكامه، ط/ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية-القاهرة، ١٣٨٨هـ-١٩٦٨م، ص١٥٥.
(٢) سورة النساء الآية ٨٢.
(٣) سورة النجم الآيات ٤٢ – ٥٢.

الذي أهلك بقدرته الأمم السابقة التي كذبت رسلها.

بل إن أول آيات نزلت من القرآن الكريم وهي قوله تعالى: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ}[١].

إن هذه الآيات لتدلدلالة قاطعة على وحدانية الخالق وربوبيته وهي تدفع الإنسان دفعا إلى الإيمان بالله الخالق الذي منح الإنسان بالوجود وشرفه بالعلم وهداه إلى استخدام أدواته.

وكذلك سورة الإخلاص وهي من متنزلات هذه المرحلة بحسب كلام بلاشير نفسه وهي واضحة الدلالة على وحدانية الله عز وجل غاية الوضوح.

إن الأصول الأساسية للعقيدة الإسلامية وهي وحدانية الله والوحي والبعث والحساب قد تضمنتها الفترة المكية الأولى وتحدثت عنها بإجمال، وجاءت بعدها السور المكية في الفترتين التاليتين بحسب ترتيب بلاشير تفصل هذا الإجمال وتسوق الأدلة والبراهين عليها، وتعرض لآلاء الله في الكون، وفي النفس وفي النبات والحيوانات والجماد[٢].

والبدء بالإجمال ثم التثنية بالتفصيل يتمشى مع منطق الأمور، فالقرآن في المرحلة الأولى يعرض قضايا العقيدة عرضا، ثم تقابل هذه العقيدة بالإنكار والتكذيب، فيأتي في المرحلة الثانية ليقيم الأدلة عليها ويقنع الناس بها وذلك يحتاج إلى بسط وتفصيل بخلاف المرحلة الأولى التي تقتصر على مجرد العرض.

الثانية: دعواه أن سورة النجم تحتوي على آثار تردد في شجب عبادة

---

(١) سورة العلق الآيات ١ – ٥.

(٢) المستشرقون والقرآن، إسماعيل سالم عبد العال، سلسلة دعوة الحق تصدرها رابطة العالم الإسلامي-مكة المكرمة، السنة التاسعة، العدد ١٠٤، العام ١٤١٠هـ-١٩٩٠م، ٣٨/٢.

اللات والعزى ومناة وهن من أصنام الجاهلية.

وهذا إن دل فإنما يدل على عدم فهمه للغة القرآن الذي ذكرهم في معرض التعجب من عبادتهم المدلول عليه بالاستفهام في قوله تعالى: { أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى * أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى * تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى * إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى}(١).

إن هذه الآيات تقرر حقيقة واضحة لكل ذي عينين وقلب، وهي أن هذه الأصنام التي يعبدونها من دون الله ليست شيئا في الحقيقة، إنها مجرد أسماء يطلقونها ليس لها مسمى موجود إلا في أوهامهم وظنونهم التي يتبعونها وهي لا تغني عنهم شيئا.

أما ما يحاول الإشارة إليه من خرافة الغرانيق وإضافته في ترجمته لسورة النجم بعد ذكر الأصنام عبارات "تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى" فمحض افتراء وكذب ومضاهاة لأعداء الإسلام الذين اختلقوا هذه القصة الباطلة.

يقول ابن كثير رحمه الله: "قَدْ ذَكَرَ كَثِيرٌ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ هَاهُنَا قِصَّةَ الغَرَانيق، وَمَا كَانَ مِنْ رُجُوعِ كَثِيرٍ مِنَ الْمُهَاجِرَةِ إِلَى أَرْضِ الْحَبَشَةِ، ظَنًا مِنْهُمْ أَنَّ مُشْرِكِي قُرَيْشٍ قَدْ أَسْلَمُوا. وَلَكِنَّهَا مِنْ طُرُقٍ كُلُّهَا مُرْسَلَةٌ، وَلَمْ أَرَهَا مسندة من وجه صحيح، والله أعلم"(٢).

أما قوله إن متنزلات المرحلتين المكيتين الثانية والثالثة، فتتميزان بطول سورهما عن المرحلة الأولى، وذلك تمهيدا للمرحلة المدنية التي تناولت

---

(١) سورة النجم الآيات ١٩ ــ ٢٣.
(٢) تفسير القرآن العظيم، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير، تحقيق سامي محمد سلامة، ط/٢ دار طيبة للنشر والتوزيع، ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م، ٤٤١/٥.

التشريعات، وهو ما يتطلب البسط والطول في الايات والسور لسرد التفاصيل والأحكام بما يرفع الإلباس والإيهام، وهكذا كل مرحة من مراحل نزول القرآن تعد تفصيلا لما سبقها وتمهيدا لما يلحقها، وكل سورة تمثل وحدة عضوية وموضوعية واحدة بحيث تترابط آياتها وتتقارب مقاصدها ويجمعها بناء واحد كأنها نسيج واحد.

ولكن بلاشير يمعن في الافتراء على كتاب الله مدعيا أن متنزلات المرحلة الثانية تحاول تحقيق الغاية من الدعوة بسرد القصص والأساطير المعروفة في الجزيرة العربية، من مثل قصص نوح وهود وصالح وإبراهيم، مدعيا كذلك اتفاق بعضها مع القصص التوراتية.

ونرد عليه في هذه النقطة قائلين: إن هذه القصص لم تأت مطابقة لما عند العرب من أساطير الأولين، بل إن أخبار هود وصالح وقومهما عاد وثمود وقبلهما قصة نوح مع قومه كانت مجهولة لدى العرب بتفاصيلها المذكورة في القرآن، فلم يكونوا يعرفون عن عاد وثمود وهم كما يسمونهم العرب البائدة سوى شيء قليل من الحقائق، مع خلط كثير من الأساطير والخرافات التي بين القرآن زيفها، ولا ذكر لهما في كتب اليهود والنصارى التي تعنى بأخبار بني إسرائيل فلا شأن لها بذكرهما.

أما قصة نوح فتكاد تكون مجهولة تماما لديهم، وقد صرح القرآن بذلك عقيب ذكرها فقال تعالى: {تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ}(١).

وأما قصة نوح وإبراهيم وغيرهم من الأنبياء المذكورة قصصهم في الكتب السابقة، فقد وجدنا القرآن يصحح كثيرا من الأخطاء المذكورة فيها، فهم لا يقولون بعصمة الأنبياء وينسبون إليهم كثيرا من الافتراءات والأباطيل

(١) سورة هود الآية ٤٩.

التي تلا تتناسب مع نبوتهم، كما أنكروا نبوة سليمان وعدوه ملكا من ملوكهم بل ونسبوا إليه عبادة أوثان الأمم الأخرى المجاورة لهم التي تزوج منها ونقلها أزواجه من بيئاتهم إلى قصره، وكذلك قصة موسى مع الخضر وهي ما لم يجر له ذكر في كتب أهل الكتاب، وكذلك قصة امرأة عمران وكفالة زكريا لمريم، وهو ما ذكره الله بقوله: {ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ}(١).

إلى آخر هذه الأكاذيب التي بينها القرآن وخالفهم فيها، فهل بذلك يكون قد تأثر بها أو اقتبس منها أو حتى جاراها مجرد مجاراة؟!

أما دعوى بلاشير أن النبي صلى الله عليه وسلم اقتبس قصص الأنبياء المذكورين في التوراة مع طبعها بطابع عربي، وإضفاء الروح العربية عليها فهي دعوى عارية عن الصحة خالية من الدليل، بل الدليل على خلافها، فلو كان كذلك مع وجدناه يخالفها في كثير من التفاصيل الأساسية، بل يذكر عنهم ما لم يذكر في كتبهم من الحقائق والأحداث.

وأما السبب في ذكر قصص الأنبياء في هذه المرحلة والتي تليها فهو أن هاتين المرحلتين قد تزامنتا مع الدعوة الجهرية التي شهدت تكذيب قريش وعنتها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فكانت قصص الأنبياء تأتي لتثبيت قلبه وإخباره أنه ليس بدعا من الرسل في المواجهة بالتكذيب والعنت من قومه وأن عليه أن يصبر على تكذيبهم وعنتهم كما صبر الرسل السابقون عليه، وقد صرح القرآن الكريم في أكثر من موضع بهذه الحكم من ذكر قصص الرسل السابقين مع أقوامهم، قال تعالى: {وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى

(١) سورة آل عمران الآية ٤٤.

لِلْمُؤْمِنِين}[١].

بالإضافة إلى الاتعاظ والاعتبار بأخبار الأمم السابقين، وبيان الحق من الباطل في ما نسب إلى الأنبياء السابقين من افتراءات وأكاذيب، قال تعالى: {لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُون}[٢].

أما متنزلات المرحلة الثالثة فقد ادعى بلاشير –بلا دليل كعادته– أنها لم تحو جديدا من الموضوعات أو طريقة معالجتها، فهو يدل على الهوى والهوس، فالمتنزلات قبيل الهجرة إلى المدينة اتسمت بأنها بدأت تهيء المسلمين للفدائية والتضحية بكل غال ونفيس في سبيل إقامة الدين وتمهيدا للتخلي عن الأوطان من أجل نصرة دينهم والنجاة بعقيدتهم، كما في سورة الكهف مثلا، كما اشتملت على كثير من القيم الأخلاقية كالتي نجدها في سورة الإسراء وذلك تمهيدا لعهد التشريعات العبادية والاجتماعية في المرحلة المدنية التالية لها.

كما ادعى بلاشير أن عالمية الدعوة لم تظهر إلى في متنزلات هذه الفترة حيث بدأت تستعمل النداء بيا أيها الناس، حيث لم يعد الوحي موجها للمكيين وحدهم بل تعداهم إلى من حولهم من العرب على اختلاف أماكنهم وقبائلهم.

ونقول إن تدرج الدعوة من المحلية إلى العالمية أو من العشيرة الأقربين إلى العرب المحيطين ثم إلى الناس أجمعين أمر يفترضه منطق الدعوة ويدل على الحكمة في الدعوة وأنها لم تجر على نحو من التخبط، لقد كانت الدعوة تسير وفق خطة ربانية حكيمة محكمة، تراعي مقتضيات الأحوال، والتدرج في

(١) سورة هود الآية ١٢٠.
(٢) سورة يوسف الآية ١١١.

الأمور، وهو أمر لم يكن يستطيعه رسول الله –صلى الله عليه وسلم– بمفرده لولا عناية الله وتوجيهه.

إن الرسول صلى الله عليه وسلم لو كان هو صاحب التخطيط للدعوة ومؤلف القرآن ما كان نفى ذلك عن نفسه، بل كان أولى به أن يظهر عبقريته وحكمة نفسه، لكننا نجده يؤمر بالتبرؤ من ذلك، قال تعالى: {وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ * فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ}(١).

وقال سبحانه: {وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ * أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَى بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ }(٢).

أما فيما يتعلق بالمرحلة المدنية فإن بلاشير يحاول أن يوحي للقارئ بأن تأسيس الدولة الإسلامية قد أضاف للرسول صلى الله عليه وسلم دورا آخر إلى جانب دور النبوة وهو دور الزعامة، حيث ألح على أنه بدأ يشعر منذ ذلك الحين أنه زعيم الأمة، واستخدام هذا المصطلح يقصد به الإيحاء بأن حكم الرسول في المدينة كان حكما ثيوقراطيا أي حكما قائما على التسلط الديني على غرار هيمنة الكنيسة على السلطة الزمنية في العصور الوسطى،

(١) سورة يونس الآيات ١٥ ـ ١٧.
(٢) سورة الأحقاف الآيات ٧ ـ ٩.

وهو أمر مرفوض، فالله تعالى قد أمر بطاعته صلى الله عليه وسلم وقرن ذلك بطاعته هو سبحانه وتعالى وذلك فيما يتعلق بكونه نبيا مبلغا عن الله أوامره ونواهيه، أما فيما يتعلق بالإدارة والسياسة فقد أمره الله تعالى بالأخذ بمدأ الشورى وتعليما له ولمن يأتي حاكما بعده، قال تعالى: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ}(١)، فهل هذا يكون حكما ثيوقراطيا؟

وقد سبق بيان أن بلاشير يقسم موضوعات القرآن المدني قسمين، موضوعات سبق طرحها في المتنزلات المكية، وموضوعات جديدة بحكم البيئة والظروف الجديدين.

وهذا لا يعد عيبا أبدا بل ميزة تبين أن القرآن يعايش واقع الأمة، ويستجيب لمتطلباتها، ويسلك مسلك التدرج في التشريع وفقا لظروفها.

لكنه زعم أن حديث القرآن عن أهل الكتاب من اليهود والنصارى -وهو من مستجدات الموضوعات في متنزلات هذه المرحلة- قد شابه الاضطراب، وهذا كلام عار عن الصحة، حيث إن حديث القرآن عن أهل الكتاب قد تميز بالإنصاف لهم، فهو شديد اللهجة مع عتاتهم الذين رفضوا الانصياع للحق وأنكروه، في مقابل ثنائه على من يقرون بالحق وينقادون له، قال تعالى: {وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ}(٢).

وقال أيضا: {ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ

(١) سورة آل عمران الآيات ١٥٩.
(٢) سورة آل عمران الآية ٧٥.

مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ * لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ * يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ * وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ}(١).

ولا يجد بلاشير مناسبة للإساءة والتنفيس عن حقده على الرسول صلى الله عليه وسلم والتعبير عن سوء أدبه وهو المتظاهر بالموضوعية والاحترام للقرآن وللرسول إلا وتجده قد استغلها، فهو حينما تحدث عن الآيات التي تتعلق بأزواج النبي وأحكامهن، نجده يدس كلمة سيئة، حيث يقول: "حرم على محمد أن يكثر من نسائه أو خليلاته"، أي خليلات أولئك الذين يتحدث عنهن بلاشير، وهل كان للرسول خليلات؟ وهل تسمى أزواجه خليلات؟!

إنه الحقد الدفين الذي ينفس عن نفسه كلما سنحت له الفرصة، وصدق الله حيث قال فيه وفي أمثاله: {قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ}(٢).

وهو يعبر عن خبثه وحقده بشكل أكثر صفاقة حين يدعي أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يشعر من تأنيب الضمير بسبب زواجه من بنت متبناه السابق زيد بن حارثة.

ونقول له هل كان هذا الأمر مجرد رغبة منه؟ وإذا كان شخصا شهوانيا كما يريد أن يصوره أولئك المستشرقون –وحاشاه- فلماذا يشعر بتأنيب الضمير من زواجه من ابنة عمته؟ ثم ألم يكن هو الذي زوجها له؟ ألم يكن

(١) سورة آل عمران الآيات ١١٢ ــ ١١٥.
(٢) سورة آل عمران الآية ١١٨.

قد عرفها من قبل وهي ابنة عمته؟ حتى تتحرك رغبته نحوها وهي في عصمة مولاه؟ ثم ألم يكن هو الذي يحاول رأب التصدع الذي عانت منه علاقتهما الزوجية التي كانت تراها الزوجة غير متكافئة؟

وإن كان لم يفعل ذلك من تلقاء نفسه فعلام يلام؟ أعلى تنفيذه لأمر الله له؟

إن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يتزوج زينب إلا بعد طلاقها من زوجها وقد كان يأمره بإمساكها وعدم طلاقها أملا في الإصلاح بينهما، ولم يطلقها زيد إلا بعد أن أيقن استحالة العشرة في جو من الشعور بعد التكافؤ الاجتماعي، فرغم رغبته في التمسك بزوجه إلا أنه يأبى أن يجبرها على الاستمرار معه، لاسيما وهي تشعر بشرفها عليه لكونها قرشية وهو مولى.

والحكمة من أمر الله له بزواجها هو القضاء البات على عادة التبني، والتأكيد على أنه لا يحرم حلالا، ولا تترتب عليه آثار البنوة، والقضاء كذلك على ذلك الموروث الجاهلي بعدم زواج الرجل من زوجة من كان ينسب إليه يوما ما بطريق التبني، وأما تردد النبي صلى الله عليه وسلم في إخبار زيد بأنه سيطلقها وأن زينب ستكون زوجة لرسول الله كما أخبره الله فلم يكن لتأنيب ضمير كما يريد أن يصور بلاشير، بل كان ذلك خشية من النبي الرفيق بأمته وبقلوبهم أن يصدم الأمر أصحابه أو يسبب لهم فتنة لجريانه على خلاف عاداتهم وتقاليدهم، وخشية أن يعطي ذلك الفرصة لأعدائه ليتكلموا في حقه، ويتخذوا من هذا الموقف فرصة للنيل منه، وهو معنى قوله تعالى: {وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ

أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا}[(١)].

قال الطاهر بن عاشور –رحمه الله–: "وَاعْلَمْ أَنَّ الْمَأْثُورَ الصَّحِيحَ فِي هَذِهِ الْحَادِثَةِ: أَنَّ زَيْدَ بْنَ حَارِثَةَ بَقِيَتْ عِنْدَهُ زَيْنَبُ سِنِينَ فَلَمْ تَلِدْ لَهُ، فَكَانَ إِذَا جَرَى بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا مَا يَجْرِي بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ تَارَةً مِنْ خِلَافٍ أَدْلَتْ عَلَيْهِ بِسُؤْدُدِهَا وَغَضَّتْ مِنْهُ بِوِلَايَتِهِ فَلَمَّا تَكَرَّرَ ذَلِكَ عَزَمَ عَلَى أَنْ يُطَلِّقَهَا وَجَاءَ يُعْلِمُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِعَزْمِهِ عَلَى ذَلِكَ لِأَنَّهُ تَزَوَّجَهَا مِنْ عِنْدِهِ، وكانَ اللَّهَ قد أَوْحَى إِلَى النَّبِي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ سَيَنْكِحُ زَيْنَبَ بِنْتَ جَحْشٍ، وَذَلِكَ هُوَ مَا فِي نَفْسِهِ، فَقَوْل النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِزَيْدٍ: «أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ» تَوْفِيَةٌ بِحَقِّ النَّصِيحَةِ، وَهُوَ أَمْرُ نُصْحٍ وَإِشَارَةٍ بِخَيْرٍ، لَا أَمْرُ تَشْرِيعٍ لِأَنَّ الرَّسُولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي هَذَا الْمَقَامِ مُتَصَرِّفٌ بِحَقِّ الْوَلَاءِ وَالصُّحْبَةِ، لَا بِصِفَةِ التَّشْرِيعِ وَالرِّسَالَةِ، وَأَدَاءُ هَذِهِ الْأَمَانَةِ لَا يَتَأَكَّدُ أَنَّهُ كَانَ يَعْلَمُ أَنَّ زَيْنَبَ صَائِرَةٌ زَوْجًا لَهُ لِأَنَّ عِلْمَ النَّبِي بِمَا سَيَكُونُ لَا يَقْتَضِي إِجْرَاءَهُ إرشاده أَوْ تَشْرِيعَهُ بِخِلَافِ عِلْمِهِ أَوْ ظَنّه، وَلِذَلِكَ كُلِّهِ لَا يُعَدُّ تَصْمِيمُ زَيْدٍ عَلَى طَلَاقِ زَيْنَب عصيانا للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَنَّ أَمْرَهُ فِي ذَلِكَ كَانَ عَلَى وَجْهِ التَّوْفِيقِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ زَوْجِهِ، وَقَوْلُهُ: أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ مَعْنَاهُ: لَازِمْ عِشْرَتَهَا، وَالَّذِي فِي نَفْسِهِ عِلْمُهُ بِأَنَّهُ سَيَتَزَوَّجُ زَيْنَبَ وَأَنَّ زَيْدًا يُطَلِّقُهَا وَذَلِكَ سِرٌّ بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَبِّهِ لَيْسَ مِمَّا يَجِبُ عَلَيْهِ تَبْلِيغُهُ وَلَا مِمَّا للنَّاس فَائِدَة فِي عِلْمِهِ حَتَّى يُبَلِّغُوهُ، فَمَا صدق «مَا فِي نَفْسِكَ» هُوَ التَّزَوُّجُ بِزَيْنَبَ وَهُوَ الشَّيْءُ الَّذِي سَيُبْدِيهِ اللَّهُ، لِأَنَّ اللَّهَ أَبْدَى ذَلِك فِي تزوج النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِهَا وَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ يَعْلَمُ أَنَّهُ سَيَتَزَوَّجُهَا، وَلَمْ يُبِدِ اللَّهُ شَيْئًا غَيْرَ ذَلِكَ، فَلَزِمَ أَنْ يَكُونَ مَا أَخْفَاهُ فِي نَفسه أمرا يَصْلُحُ لِلْإِظْهَارِ فِي الْخَارِجِ، أَي أَن يَكُونُ مِنَ الصُّوَرِ الْمَحْسُوسَةِ، وَالْخَشْيَةُ هُنَا كَرَاهِيَةُ مَا يُرْجِفُ بِهِ الْمُنَافِقُونَ، وَالْكَرَاهَةُ مِنْ ضُرُوبِ الْخَشْيَةِ، إِذِ الْخَشْيَةُ جِنْسٌ مَقُولٌ عَلَى أَفْرَادِهِ بِالتَّشْكِيكِ، فَلَيْسَتْ هِيَ خَشْيَةُ خوف، إِذْ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يَكُنْ يَخَافُ أَحَدًا مِنْ ظُهُورِ

(١) سورة الأحزاب الآية ٣٧.

تَزَوُّجِهِ بِزَيْنَبَ، وَلَمْ تَكُنْ قَدْ ظَهَرَتْ أَرَاجِيفُ الْمُنَافِقِينَ بعد، وَلَكِن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَتَوَسَّمُ مِنْ خُبْثِهِمْ وَسُوءِ طَوِيَّتِهِمْ مَا يَبْعَثُهُم على القالة فِي النَّاس لفتنة الْأمة، فَكَانَ يعلم مَا سيقولونه ويمتعض مِنْهُ، كَمَا كَانَ مِنْهُمْ فِي قَضِيَّةِ الْإِفْكِ، وَلَمْ تَكُنْ خَشْيَةً تَبْلُغُ بِهِ مَبْلَغَ صَرْفِهِ عَمَّا يَرْغَبُهُ، بِدَلِيلِ أَنَّهُ لَمْ يَتَرَدَّدْ فِي تَزَوُّجِ زَيْنَبَ بَعْدَ طَلَاقِ زَيْدٍ، وَلَكِنَّهَا اسْتِشْعَارٌ فِي النَّفْسِ وَتَقْدِيرٌ لِمَا سَيُرْجِفُهُ الْمُنَافِقُونَ، وَبِهَذَا تعلم أَن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا فَعَلَ إِلَّا مَا يُرْضِي اللَّهَ، وَقَدْ قَامَ بِعَمَلِ الصَّاحِبِ النَّاصِحِ حِينَ أَمَرَ زَيْدًا بِإِمْسَاكِ زَوْجِهِ وَانْطَوَى عَلَى عِلْمٍ صَالِحٍ حِينَ خشِي مَا سيفترضه الْمُنَافِقُونَ مِنَ الْقَالَةِ إِذَا تَزَوَّجَ زَيْنَبَ خُفْيَةً أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُمْ فِتْنَةً لِضُعَفَاءِ الْإِيمَانِ كَقَوْلِهِ لِلرَّجُلَيْنِ اللَّذَيْنِ رَأَيَاهُ فِي اللَّيْلِ مَعَ زَيْنَبَ فَأَسْرَعَا خُطَاهُمَا فَقَالَ: «عَلَى رِسْلِكُمَا إِنَّمَا هِيَ زَيْنَبُ. فَكَبُرَ ذَلِكَ عَلَيْهِمَا وَقَالَا: سُبْحَانَ اللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ. فَقَالَ: «إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنِ ابْنِ آدَمَ مجْرى الدَّم وَإِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَقْذِفَ فِي قُلُوبِكُمَا» فمقام النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْأُمَّةِ مَقَامُ الطَّبِيبِ النَّاصِحِ فِي بِيمَارِسْتَانَ يَحْوِي أَصْنَافًا مِنَ الْمَرْضَى إِذَا رَأَى طَعَامًا يُجْلَبُ لِمَا لَا يَصلُحُ بِبَعْضِ مَرْضَاهُ أَنْ يَنْهَى عَنْ إِدْخَالِهِ خَشْيَةَ أَنْ يَتَنَاوَلَهُ مِنَ الْمَرْضَى مَنْ لَا يَصلُحُ ذَلِكَ بِمَرَضِهِ وَيَزِيدُ فِي عِلَّتِهِ أَوْ يُفْضِي إِلَى انْتِكَاسِهِ."ا.هـ[(١)].

فالذي زوجها له هو الله تعالى، فكانت زيْنب تَفْخَرُ على أَزْواجِ النبيِّ – صلى الله عليه وسلم –، تَقُولُ: "زوّجكُنَّ أهاليكُنَّ، وَزَوَّجَني اللهُ تعالى مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سماواتٍ"[(٢)].

إن بلاشير وأضرابه من المستشرقين يعتمدون في ذلك على بعض الروايات المذكورة في ثنايا بعض كتب التفسير التي اهتمت بالجمع دون التمحيص للروايات جريا على القاعدة التي تقول (من أسند فقد أحالك) أي

(١) التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، ط/ الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤م، ٣١/٢٢ (مختصرا).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، بَابُ {وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى المَاءِ} [هود: ٧]، {وَهُوَ رَبُّ العَرْشِ العَظِيمِ} [التوبة: ١٢٩] حديث رقم ٧٤٢٠، (٩/ ١٢٤).

من ذكر لك الرواية بإسناده فقد أحالك على السند فعليك أن تقوم بالنظر في السند لتعرف صحيحها من سقيمها.

المبحث الثاني: نقد موقفه من أساليبه في مراحل نزوله:

يدعي بلاشير أن لغة القرآن تشبه لغة الشعر، وهي دعوى يتظاهر من خلالها بإعجابه بالأسلوب القرآني الأخاذ وما له من جرس موسيقي وإيقاع يسترعي الأسماع، ويتوشح بالأسجاع، وهي دعوى في حقيقتها ليست سوى ما جاء على ألسنة المشركين في زمن النبوة حين رموا النبي صلى الله عليه وسلم بالشعر والكهانة.

وإن من يتأمل القرآن الكريم يدرك أنه نسيج وحده، فلا هو بالشعر في وزنه وقافيته ولا هو بالنثر الذي يستطيعه الناس جميعا، ولكنه جنس أدبي فريد متفرد ومتميز لا يندرج تحت أي جنس أعلى منه من أجناس الكلام البشري، لكنه كلام عربي مبين، حكيم بليغ رصين، يعجز البلغاء والفصحاء عن النظم على مثاله أو النسج على منواله، فها هو قائل قريش يصفه بأنه ليس من كلام الإنس ولا من كلام الجن، إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه ليعلو وما يعلى عليه.

إن القرآن ليدافع عن نفسه بكلام غاية في الإعجاز والإفحام لمن لم يفلح معه الإفهام: {فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ * وَمَا لَا تُبْصِرُونَ * إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ * وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ * تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ}(١).

قال الماوردي: "من إعجازه أن الكلام يترتب ثلاث مراتب منثور يدخل في قدرة الخلق وشعر هو أعلى منه يقدر عليه فريق ويعجز عنه فريق وقرآن هو أعلى من جميعها وأفضل من سائرها تجاوز رتبة النوعين فخرج عن قدرة

(١) سورة الحاقة الآيات ٣٨ – ٤٣.

الفريقين"[١].

فأي شعر هذا الذي يضاهيه بل يدانيه؟!

إن الشعر قول، والقول هو الجنس الذي يشترك فيه الشعر مع باقي الفنون القولية من خطبة؛ وهو مخيل، والخيال هو الفصل يميزه عما لا خيال فيه، وهو يتكون من أقوال موزونة، وهذا فصل له عما ليس بموزون من القول، ومقفى وهو خاصة تفرد بها الشعر عن بقية أنواع القول[٢].

أما القرآن فهو ليس من نوع القول البشري المعروف، فهو أحيانا قليلة بل نادرة تأتي آيتان موزونتان وزنا واحد من غير اطراد، بل بحسب ما يقتضيه المقام من الجمل والعبارات والمفردات، وأحيانا يأتي على ختام واحد لا يسمى قافية ولا سجعا بل بحسب ما يسترعي الانتباه ويأخذ الأسماع ويؤثر في القلوب.

إنه في المقام الأول كتاب هداية وإرشاد وبيان للحقائق وإيضاح للأحكام، تتنوع أساليبه بحسب مقتضى الأحوال، حائزا في ذلك كله غاية الكمال، لا يصطنع الموسيقى والوزن على حساب المعاني والمقاصد، ولا يمعن في إيضاح الفكرة بأسلوب ينصرف عنه السامع، ولكنه يجمع بين الجزالة والرقة، وجمال الألفاظ والمباني، وسمو المقاصد والمعاني.

"هُوَ الفَصْلُ لَيْسَ بِالهَزْلِ، مَنْ تَرَكَهُ مِنْ جَبَّارٍ قَصَمَهُ اللَّهُ، وَمَنْ ابْتَغَى الهُدَى فِي غَيْرِهِ أَضَلَّهُ اللَّهُ، وَهُوَ حَبْلُ اللَّهِ المَتِينُ، وَهُوَ الذِّكْرُ الحَكِيمُ، وَهُوَ الصِّرَاطُ المُسْتَقِيمُ، هُوَ الَّذِي لَا تَزِيغُ بِهِ الأَهْوَاءُ، وَلَا تَلْتَبِسُ بِهِ الأَلْسِنَةُ، وَلَا يَشْبَعُ مِنْهُ العُلَمَاءُ، وَلَا يَخْلَقُ عَلَى كَثْرَةِ الرَّدِّ، وَلَا تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ، هُوَ الَّذِي لَمْ تَنْتَهِ الجِنُّ إِذْ سَمِعَتْهُ حَتَّى قَالُوا: {إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى

---

(١) أعلام النبوة، أبو الحسن علي بن محمد الماوردي، ط/١، دار ومكتبة الهلال-بيروت، ١٤٠٩هـ، ص٨٦.

(٢) آراء المستشرقين الفرنسيين في القرآن الكريم، أحمد نصري، ص١٤١، ١٤٢.

الرُّشْدِ}[١]، مَنْ قَالَ بِهِ صَدَقَ، وَمَنْ عَمِلَ بِهِ أُجِرَ، وَمَنْ حَكَمَ بِهِ عَدَلَ، وَمَنْ دَعَا إِلَيْهِ هَدَى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ"[٢].

فالقرآن الكريم ليس شعرا لأنه لا يتوخى وزنا ولا يلتزم قافية، ولا له أغراض الشعر ولا دواعيه.

وقد وضح العلماء خصائص القرآن التي تميزه عن أي قول آخر، وهي:

أولا: فصاحته وبيانه، وإنما يوصف الكلام بالفصاحة والبيان بشروط ثلاثة:

١-بلاغة ألفاظه.

٢-استيفاء معانيه.

٣-حسن نظمه.

ثانيا: إيجازه، مع استيفاء معانيه، كقوله تعالى: {وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ}[٣].

ثالثا: إن ألفاظ القرآن قد تشتمل على الجزل المستغرب، والسهل المستقرب، فلا يوعر جزله، ولا يسترذل سهله، ويكونان إذا اجتمعا مطبوعين غير متنافرين، ولا نجد ذلك في غيره من كلام البشر.

رابعا: إن تلاوته تختص بخمسة بواعث عليها:

١- هشاشة مخرجه.

٢- بهجة رونقه.

٣- سلاسة نظمه.

---

(١) سورة الجن الآية ٢.
(٢) أخرجه الترمذي في سننه باب ما جاء في فضل القرآن رقم (٢٩٠٦) من حديث علي بن أبي طالب –رضي الله عنه- وضعفه الألباني.
(٣) سورة هود الآية ٤٤.

٤- حسن قبوله.

٥- لا كل قارئه ولا يمل سامعه.

خامسا: اقتران معانيه المتغيرة، واقتراب نظائرها في الصور المختلفة، فيخرج في السورة من وعد إلى وعيد، ومن ترغيب إلى ترهيب، ومن ماض إلى مستقبل، ومن خطاب إلى غيبة، ومن قصص إلى مثل، ومن حكم إلى جدل، فلا ينبو ولا يتنافر.

سادسا: تيسيره للذكر حتى قرأه بل وحفظه من الأعاجم الذين لا يجدون نطق غيره من لغة العرب، فإذا قرأوه فكأنهم عرب خلص(١).

فالقرآن جنسية لغوية فريدة، ونوعية أدبية خاصة، أحدثت طفرة في اللغة العربية، إذ نقلتها من اللهجية الجاهلية إلى لغة منظمة فنيا(٢).

تقول المستشرقة الإيطالية المنصفة لورافيشيافاغليري: "ليس ثمة أيما نمط لهذا الأسلوب في الأدب العربي الذي تحدر إلينا من العصور التي سبقته، والثر الذي يحدثه في النفس البشرية إنما يتم من غير أيما عون عرضي أو إضافي من خلال سموه السليقي، إن آياته كلها على مستوى واحد من البلاغة عندما تعالج موضوعات لابد أن تؤثر في نفسها وجرسها كموضوع الوصايا والنواهي وما إليها"(٣).

أما قوله إن القرآن يتوشح بالأسجاع، فالسجع في اللغة: الكلام المقفَّى، أو موالاة الكلام على روي واحد، وجمعه: أسجاع وأساجيع، وهو مأخوذ من سَجع الحمام، وهو هديله وترجيعه لصوته.

(١) آراء المستشرقين الفرنسيين في القرآن الكريم، أحمد نصري، ص١٤٥، ١٤٦.
(٢) انظر: الظاهرة القرآنية، مالك بن نبي، ط/٤، دار الفكر-دمشق، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م، ص ١٨٤.
(٣) دفاع عن الإسلام، تعريب: منير البعلبكي، ط/٥ دار العلم للملايين-بيروت، ١٩٨١م، ص٥٦.

وفي اصطلاح البلاغيين: "اتفاق اللفظ في آخر الجمل بالحرف الواحد. وقد أعطى مثلا عليه كلام معاوية «لهو أهون علي من ذرة، أو كلب من كلاب الحرة» . ينفي عن نفسه تهمة الاهتمام به أو تكلفه"[١].

ويقع في الشعر كما يقع في النثر، فمما تواطأت فيه الفواصل على حرف واحد قول الله تعالى: {وَالطُّورِ * وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ * فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ * وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ}[٢] إلى آخره. وكذا قوله –جل وعلا: {وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا * فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا * فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا}[٣]. ومن التواطؤ على حروف متقاربة: قول الله تعالى: {وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ * أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ * وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ * مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ}[٤]، فالباء والدال والقاف حروف متقاربة.

ومن وقوعه في الشعر قول أبي تمام:

تجلَّى به رشدي وأثرتْ به يدي ... وفاضَ به ثَمْدي وأورَى به زِندي

وقول المتنبي:

فنحن في جذل والروم في وجل ... والبر في شغل والبحر في خجل

ويرى بعض البلاغيين كالسكاكي والخطيب: أن السجع لا يكون إلا في النثر، وأنه لا يكون إلا بتواطؤ الفاصلتين أو الفواصل على حرف واحد، فليس منه التواطؤ على حروف متقاربة.

وقد عرف السجع في لغة العرب منذ عصر الجاهلية في كلامهم

(١) الرسائل الأدبية، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، ط/٢ دار ومكتبة الهلال-بيروت، ١٤٢٣هـ، ص٢٤٣.
(٢) سورة الطور الآيات ١ - ٤.
(٣) سورة العاديات الآيات ١ – ٣.
(٤) سورة ص الآيات ٤ – ٧.

وخطبهم ونثرهم عموما واشتهر واستحسنوه لما يشتمل عليه من خفة على الأسماع وسهولة في الحفظ ولما يدل عليه من مقدرة لغوية لصاحبه، لكن لشهرته عن الكهان صار البعض يربطه بهم فيقول سجع الكهان، وليس معنى ذلك أنه لا يرد عن غيرهم ولا يستعمله إلا هم، حتى يقال إن كل من يأتي به فهو كاهن.

وكان للسجع منزلة سنية بين العرب في الجاهلية، فلقد كثر في كلامهم، كان يصدر منهم عن طَبْع سليم، وسليقة قوية، وفِطرة واضحة. من ذلك قول أوس بن حارثةَ موصيًا ابنَه: "يا مالك المنية ولا الدنية، والعتاب قبل العقاب، والتجلد لا التبلد، واعلم أن القبر خيرٌ من الفقر، وشر شارب المُشْتَف، وأقبح طاعم المقتف، وذهاب البصر خير من كثير النظر".

ومنه قول قس بن ساعدة الأيادي في سوق عكاظ، وهو مشهور: "أيها الناس، اسمعوا وعوا، من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آت آت، ليل داج، ونهار ساج، وسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، ونجوم تزهر، وبحار تزخر".

ومنه أيضًا قول عبد المطلب بن هاشم يهنئ سيفَ بن ذي يزن باسترداد مُلكه من الحبشة: "إن الله تعالى أيها الملك أحلك محلًا رفيعًا صعبًا منيعًا، باذخًا شامخًا، وأنبتك منبتًا طابت أرومته، وعزت جرثومته، وثبت أصله وبسق فرعه في أكرم معدن وأطيب موطن".

وإلى جانب هذا السجع الفطري وُجِدَ نوع آخر من السجع المتكلف، وهو سجع الكهان، كقول سُطيح بن مازن وهو من كهان العرب، في تعبير رؤيا ربيعة بن نصر اللخمي أحد ملوك اليمن: "أحلف بما بين الحَرتين من حنش، ليهبطن أرضَكم الحبش، وليمكنن ما بين أبينَ إلى جرش"، وقول شق أنمار من كهان العرب في تعبير تلك الرؤيا: "أحلف بما بين الحرتين من إنسان،

لينزلن أرضكم السودان، وليغلبن على كل طَفلة البَنان، وليملكن إلى ما بين أبينَ ونجران".

لكن الفرق بينهما كما قال علماء البلاغة، أن السجع عند الخطباء يغلب عليه طابع الفطرية فتستحسنه الأسماع، أما سجع الكهان فهو سجع متكلف فيكون مرذولا مستنكرا لا يستساغ، ولهذا قال البلاغيون: "لا يحسن السجع إلا إذا كانت المفردات رشيقة، والألفاظ خدما للمعاني، وحينئذ يكون السجع حلية ظاهرة في الكلام، ولا يستحسن السجع إلا إذا جاء عفوا خاليا من التكلف والتصنع"(١).

وها هو شيخهم الجرجاني يقول: "إنك لا تجد تجنيسا مقبولا ولا سجعا حسنا حتى يكون المعنى هو الذي طلبه واستدعاه وساق نحوه، وحين تجده لا تبتغي به بدلا، ولا تجد عنه حولا"(٢).

والعربي الأصيل يدرك بذائقته الفطرية الفرق بين السجع الفطري والمتكلف، فيستعذب الأول ويستغرب الثاني، كما كان من النبي صلى الله عليه وسلم حين سمع رجلا يقول: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَضَى فِي امْرَأَتَيْنِ مِنْ هُذَيْلٍ اقْتَتَلَتَا، فَرَمَتْ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى بِحَجَرٍ، فَأَصَابَ بَطْنَهَا وَهِيَ حَامِلٌ، فَقَتَلَتْ وَلَدَهَا الَّذِي فِي بَطْنِهَا، فَاخْتَصَمُوا إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَضَى: أَنَّ دِيَةَ مَا فِي بَطْنِهَا غُرَّةٌ عَبْدٌ أَوْ أَمَةٌ، فَقَالَ وَلِيُّ المَرْأَةِ الَّتِي غَرِمَتْ: كَيْفَ أَغْرَمُ، يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَنْ لاَ شَرِبَ وَلاَ أَكَلَ، وَلاَ نَطَقَ وَلاَ اسْتَهَلَّ، فَمِثْلُ ذَلِكَ يُطَلُّ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّمَا هَذَا

(١) جواهر البلاغة، أحمد إبراهيم الهاشمي، ط/ المكتبة العصرية-بيروت، ١٩٦٣م، ص٣٣١.
(٢) عبد القاهر الجرجاني، أحمد أحمد بدوي، سلسلة أعلام العرب، العدد ٨، ص٢٢.

مِنْ إِخْوَانِ الكُهَّانِ» مِنْ أَجْلِ سَجْعِهِ الَّذِي سَجَعَ [١]،فقد أنكره النبي صلى الله عليه وسلم لما فيه من تكلف وتمحل أشبه فيه قول الكهان.

ومشركو قريش حين رموا النبي صلى الله عليه وسلم بالكهانة وهم يعلمون أنهم كاذبون ونفاه عنه الوليد بن المغيرة حيث قال: "قَالَ: لَا وَاَللَّهِ مَا هُوَ بِكَاهِنٍ، لَقَدْ رَأَيْنَا الْكُهَّانَ فَمَا هُوَ بِزَمْزَمَةِ الْكَاهِنِ وَلَا سَجْعِهِ" [٢]، لم يكن ذلك فقط لوقوع السجع في القرآن، بل دعواهم في ذلك كانت لإخباره عن بعض الغيوب المستقبلية التي هي في الواقع من دلائل النبوة لا من الكهانة، فالكهنة لا علم لهم بالمستقبل، لكنهم قد يعلمون ما خفي عن بعضهم في الزمن الماضي أو الحاضر بإخبار شياطينهم لهم، الذين يسترقون السمع فينزلون فيخبروهم بما سمعوه ويدخلون مع كل كلمة تسعة وتسعين كذبة.

وقد استنكف بعض العلماء كالباقلاني إطلاق السجع على ما تواطأت فيه نهايات الآيات القرآنية فسموه الفواصل، وفي ذلك يقول: "إن الذي يعتبره هؤلاء سجعا ليس بسجع وإنما هو شيء على مثاله، لأن السجع من الكلام يكون فيه المعنى تابعا للفظ، الذي يؤدي السجع، والقرآن ليس كذلك، لأن اللفظ يقع فيه تابعا للمعنى"[٣].

وأيا ما كانت التسمية فليس ذلك عيبا في القرآن كما ادعى بعض المستشرقين وكما ألمح بلاشير، بل جرى ذلك على ألسنة العرب، وعرف أنه من محسنات كلامهم، فمجيء القرآن به لا يعاب به بل هو دليل على كونه

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الطب باب الكهان رقم ٥٧٥٨، ومسلم في كتاب القسامة والمحاربين والقصاص والديات، بَابُ دِيَةِ الْجَنِينِ، وَوُجُوبِ الدِّيَةِ فِي قَتْلِ الْخَطَإِ، وَشِبْهِ الْعَمْدِ عَلَى عَاقِلَةِ الْجَانِي رقم ١٦٨١.

(٢) انظر: السيرة النبوية، أبو محمد جمال الدين عبد الملك بن هشام، تحقيق: مصطفى السقا وآخرين، ط/٢، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي-القاهرة، ١٣٧٥هـ-١٩٥٥م، ٢٧٠/١.

(٣) إعجاز القرآن، تحقيق: السيد أحمد صقر، ط/٥ دار المعارف-القاهرة، ١٩٩٧م، ص٨٣، ٨٤.

عربيا يضارع أساليب العرب في لغتها لتألفه أسماعهم وتعرفه قلوبهم وتفهمه عقولهم.

تقسيمه للأسلوب القرآني إلى مكي ومدني:

هذه القضية تواردت على ألسنة المستشرقين وفي كتاباتهم وهم يهدفون منها إلى غاية تخدم غرضهم في الطعن في القرآن وهي أن القرآن قد خضع في نظمه لمؤثرات وعوامل بيئية مختلفة في مكيه عن مدنيه، وأنه في مكة كان أسلوبه شعريا يتفق مع لغة أهل مكة وجزالتها وفصاحتها، لذلك جاءت آياته قصيرة مفعمة بالأسجاع، مهتمة بالأخيلة أكثر من الحجج المنطقية، وأنه في المدينة قد تأثر بأهل الكتاب من اليهود وثقافتهم الخاصة، فجاءت آياته وسوره طويلة ذات أسلوب معقد،ومن ثم يصفون القرآن بأنه لم يأت على نسق واحد، وأن أسلوبه تغير بحسب العوامل المؤثرات التي أحاطت به، والمرمى البعيد لهم في ذلك هو محاولة إثبات بشرية القرآن وأنه من قول محمد –صلى الله عليه وسلم– وأنه جاء أسلوبه مختلفا نتيجة للمؤثرات الذي أثرت على أسلوبه في كلا البيئتين.

والواقع أن هناك تمايزا بين السور المكية والسور المدنية من حيث الطول والقصر مثلا، لكن ذلك ليس راجعا إلى الاختلاف بين ثقافتي المكيين واليهود، وإنما إلى نوعية الموضوعات التي تناولتها السور المنزلة في كل منهما.

فالقرآن المكي اهتم بشكل أساسي بموضوعات العقيدة، وتثبيت قلب النبي –صلى الله عليه وسلم– في مواجهة التحديات والمصاعب التي واجهت دعوته في مكة، وقد استدعى ذلك أن تأتي الآيات والسور المكية مشحونة بالبيانات المختصرة سهلة الحفظ والاستحضار، كما اهتمت بسرد قصص الأنبياء السابقين وما أصاب أقوامهم في نهاية الأمر من نكال الله بهم جراء

تكذيبهم، تبشيرا للرسول وأصحابه، وتحذيرا لأعدائهم من مغبة الاستمرار في غيهم.

أما في المدينة فقد كانت مرحلة التشريع التي تستدعي الإسهاب في بيان الأحكام كآية الدين والآيات التي تحدثت عن صلاة الخوف مثلا، وغيرها كثير.

إن اختلاف الأسلوب باختلاف الموضوع أمر لا عيب فيه، بل هو من مقتضيات الأحوال، والبلاغة هي مراعاة الكلام لمقتضى الحال، فهو يطنب حينما يستدعي الغرض الأطناب، ويوجز حينما يتطلب الإيجاز.

ومع ذلك فلا تجد تنافرا بين السور المكية والسور المدنية بحيث يشعر القارئ أو السامع بتلك النقلة التي تمجها الأسماع وتنبو عنها الأذواق، بل تجد تناسقا وتناغما بين سور القرآن كلها مكيها ومدنيها، ولا أدل على ذلك من أنك تجد السورة المدنية قد تخللتها آيات مكية والعكس، دون أن تلاحظ فجوة بين الأسلوبين، أو اختلافا يخل بفصاحة الكلام.

أما دعواه التباين الشديد بين أساليب السور القرآنية المنزلة في المراحل الأربعة التي اصطنعها فراجع إلى ضعف ذائقته اللغوية لعجمته التي غلبت عليه والتي لم تفلح في تقويمها دراسته الطويلة للأدب العربي، بالإضافة إلى انسياقه وراء ما ردده قبله بعض المستشرقين، ورغبته الجامحة في إلصاق أي عيب في أسلوب القرآن زورا وبهتانا.

ولا أدل على ذلك من أن القارئ الذي يجهل تاريخ نزول السور القرآنية يصعب عليه تحديد أيها نزل أولا وأيها نزل أخيرا، كيف ونحن نجد سور القرآن الكريم يتعانق مكيها ومدنيها في المصحف ومتنزلات المراحل الأربعة دون أن يجد القارئ غرابة أو تباينا في أسلوب كل منها.

فها هي سور البقرة وآل عمران والنساء والمائدة مدنيات يعقبها الأنعام

والأعراف مكيتان تليهما الأنفال والتوبة مدنيتان، فيونس وهود ويوسف والرعد وإبراهيم والحجر والنحل والإسراء والكهف ومريم وطه والأنبياء مكيات، فالحج مدنية، فالمؤمنون مكية، فالنور مدنية فالفرقان والشعراء والنمل والقصص والعنكبوت والروم ولقمان والسجدة مكيات فالأحزاب مدنية وهكذا.

المبحث الثالث: نقد موقفه من تدوينه وجمعه.

اهتم النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه بكتابة النص القرآني وتدوينه في السطور اهتماما بالغا منذ مراحل نزوله الأولى كما اهتموا بحفظه في الصدور، ومع أنه صلى الله عليه وسلم كان أميا لا يكتب وكان يعتمد على حفظ ما ينزل عليه، وعلى تلقينه لصحابته الذين كان كثير منهم أيضا أميين لا يكتبون، لم تصرفهم عنايتهم بحفظه واستظهاره عن عنايتهم بكتابته ونقشه ولكن بمقدار ما سمحت به وسائل الكتابة وأدواتها في عصرهم. فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يكلف عددا من أصحابه الذين يجيدون الكتابة بكتابة ما ينزل عليه، وقد عرف هؤلاء الصحابة بلقب "كُتَّاب الوحي" بلغ عددهم ثلاثة وأربعين صحابيا، منهم الأربعة الخلفاء ومعاوية وأبان بن سعيد وخالد بن الوليد وأبي بن كعب وزيد بن ثابت وثابت بن قيس وأرقم بن أبي وحنظلة بن الربيع وغيرهم. فكان صلى الله عليه وسلم إذا أنزل عليه شيء يدعو أحد كتابه هؤلاء ويأمره بكتابة ما نزل عليه ولو كان كلمة كما روي أنه لما نزل عليه قوله تعالى: {لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ}[1] قال ابن أم مكتوم وعبد الله بن جحش: يا رسول الله إنا أعميان فهل لنا رخصة؟ فأنزل الله {غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ} . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ائتوني بالكتف والدواة" وأمر زيدا أن يكتبها. فكتبها فقال زيد كأني أنظر إلى موضعها عند صدع الكتف[2].

وقوله صلى الله عليه وسلم: "من كتب عني شيئا غير القرآن

(١) سورة النساء الآية ٩٥.
(٢) أخرجه الترمذي في سننه باب من سورة النساء، حديث ٣٠٣١، وصححه الألباني.

فليمحه"[١] وقول أبي بكر لزيد بن ثابت: إنك رجل شاب لا نتهمك. وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم.

أضف إلى ذلك أن الصحابة كانوا يكتبون القرآن فيما يتيسر لهم حتى في العظام والرقاع وجريد النخل ورقيق الحجارة ونحو ذلك ثم يوضع المكتوب في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهكذا انقضى العهد النبوي السعيد والقرآن مجموع على هذا النمط بيد أنه لم يكتب في صحف ولا في مصاحف، بل كتب منثورا بين الرقاع والعظام ونحوها مما ذكرنا، مما يدل على عظيم بلائهم في هذا الأمر الجلل رضي الله عنهم أجمعين[٢].

فكان كلما نزل عليه شيء من القرآن أمرهم بكتابته عند نزوله، فما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا والقرآن محفوظ في صدور الصحابة ومكتوب عندهم بتمامه.

وقد ساعد على ذلك نزول القرآن منجما، فقد كانت هذه إحدى الحكم التي لأجلها نزل القرآن كذلك ولم ينزل جملة واحدة كغيره من الكتب السماوية السابقة.

قال الزركشي: "وقيل: معنى {لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ}[٣] لنحفظه فَإِنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ أُمِّيًّا لَا يَقْرَأُ وَلَا يَكْتُبُ فَفَرَّقَ عَلَيْهِ لِيُيَسَّرَ عَلَيْهِ حِفْظُهُ بِخِلَافِ غَيْرِهِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ فَإِنَّهُ كَانَ كَاتِبًا قَارِئًا فَيُمْكِنُهُ حِفْظُ الْجَمِيعِ إِذَا نُزِّلَ جُمْلَةً"[٤].

إذن فدعوى بلاشير أن التدوين لم يحدث إلا في المدينة وأنه حينما وقع

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق، باب التثبت في الحديث وحكم كتابة العلم، رقم (٣٠٠٤) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.
(٢) مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم الزرقاني، ط/٣، مطبعة عيسى البابي الحلبي، ٣٦٧/١.
(٣) سورة الفرقان الآية ٣٢.
(٤) البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط/١، دار إحياء الكتب العربية-القاهرة، ١٣٧٦هـ-١٩٥٧م، ٢٣١/١.

لم يكن عملا منظما وإنما كان مجهودا شخصيا من بعض الصحابة الذين يجيدون الكتابة، كلام عار عن الصحة ولا دليل عليه بل الدليل قائم على إثبات ضده كما بينا.

وكان هؤلاء الكتاب من خيرة الصحابة فيهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي ومعاوية وأبان بن سعيد وخالد ابن الوليد وأبي بن كعب وزيد بن ثابت وثابت بن قيس وغيرهم. وكان صلى الله عليه وسلم يدلهم على موضع المكتوب من سورته. ويكتبونه فيما يسهل عليهم من العسب واللخاف، والرقاع، وقطع الأديم، وعظام الأكتاف والأضلاع. ثم يوضع المكتوب في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم. وهكذا انقضى العهد النبوي السعيد والقرآن مجموع على هذا النمط بيد أنه لم يكتب في صحف ولا في مصاحف. بل كتب منثورا كما سمعت بين الرقاع والعظام ونحوها[1].

فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: قُلْتُ لِعُثْمَانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، مَا حَمَلَكُمْ أَنْ عَمَدْتُمْ إِلَى بَرَاءَةَ، وَهِيَ مِنَ الْمِئِينِ وَإِلَى الْأَنْفَالِ وَهِيَ مِنَ الْمَثَانِي، فَقَرَنْتُمْ بَيْنَهُمَا وَلَمْ تَجْعَلُوا بَيْنَهُمَا سَطْرًا فِيهِ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، وَوَضَعْتُمُوهَا فِي السَّبْعِ الطِّوَالِ مَا حَمَلَكَ عَلَى ذَلِكَ؟ فَقَالَ عُثْمَانُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: " إِنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ مِمَّا يَنْزِلُ عَلَيْهِ مِنَ السُّوَرِ الَّتِي يُذْكَرُ فِيهَا كَذَا وَكَذَا، فَإِذَا أُنْزِلَتْ عَلَيْهِ الْآيَاتُ يَقُولُ: " ضَعُوا هَذِهِ الْآيَاتِ فِي مَوْضِعِ كَذَا وَكَذَا " فَإِذَا نَزَلَتْ عَلَيْهِ السُّورَةُ " يَقُولُ: " ضَعُوا هَذِهِ فِي مَوْضِعِ كَذَا وَكَذَا " وَكَانَتِ الْأَنْفَالُ أَوَّلَ مَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ بِالْمَدِينَةِ، وَكَانَتْ بَرَاءَةُ مِنْ آخِرِ الْقُرْآنِ نُزُولًا، وَكَانَتْ قِصَّتُهَا تُشْبِهُ قِصَّتَهَا، فَقُبِضَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَمْ يُبَيِّنْ أَمْرَهَا فَظَنَنْتُ أَنَّهَا مِنْهَا، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ قَرَنْتُ بَيْنَهُمَا، وَلَمْ أَجْعَلْ بَيْنَهُمَا سَطْرًا فِيهِ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، وَوَضَعْتُهَا فِي السَّبْعِ الطِّوَالِ "

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن، ٢٤٦/١، ٢٤٧.

قال البيهقي: "فَفِي هَذَا مَا دَلَّ عَلَى أَنَّهَا إِنَّمَا كُتِبَتْ فِي مَصَاحِفِ الصَّحَابَةِ مَعَ دَلَالَةِ الْمُشَاهَدَةِ"[1].

وعن زيد بن ثابت قال: كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم نؤلف القرآن من الرقاع[2].

وكان هذا التأليف عبارة عن ترتيب الآيات حسب إرشاد النبي صلى الله عليه وسلم وكان هذا الترتيب بتوقيف من جبريل عليه السلام فقد ورد أن جبريل عليه السلام كان يقول: ضعوا كذا في موضع كذا، ولا ريب أن جبريل كان لا يصدر في ذلك إلا عن أمر الله عز وجل.

وإنما لم يجمع القرآن في صحف ولا مصاحف لاعتبارات كثيرة، منها:

أولها: أنه لم يوجد من دواعي كتابته في صحف أو مصاحف مثل ما وجد على عهد أبي بكر حتى كتبه في صحف، ولا مثل ما وجد على عهد عثمان حتى نسخه في مصاحف. فالمسلمون وقتئذ بخير، والقراء كثيرون والإسلام لم يستبحر عمرانه بعد، والفتنة مأمونة، والتعويل لا يزال على الحفظ أكثر من الكتابة وأدوات الكتابة غير ميسورة وعناية الرسول باستظهار القرآن تفوق الوصف وتوفي على الغاية حتى في طريقة أدائه على حروفه السبعة التي نزل عليها.

وثانيها: أن النبي صلى الله عليه وسلم كان بصدد أن ينزل عليه الوحي بنسخ ما شاء الله من آية أو آيات.

ثالثها: أن القرآن لم ينزل مرة واحدة بل نزل منجما في مدى ثلاث وعشرين سنة.

---

(١) السنن الكبرى، أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، ط/٣ دار الكتب العلمية-بيروت، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م، ٦٣/٢.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه كتاب الفضائل باب في فضل الشام واليمن رقم ٣٩٥٤ وقال الألباني: صحيح.

رابعها: أن ترتيب آياته وسوره ليس على ترتيب نزوله إنما كان نزوله على حسب الأسباب أما ترتيبه فكان لغير ذلك من الاعتبارات[1].

من ذلك يتبين لنا ما يلي:

أولا: أن تدوين القرآن وكتابته قد بدأ في مرحلة مبكرة جدا من بداية نزول الوحي في مكة، ولم يتأخر حتى العهد النبوي كما زعم بلاشير.

ثانيا: أن النبي صلى الله عليه وسلم هو الذي كان يأمر بالكتابة والتدوين وكان يستدعي الكتبة كلما نزل عليه شيء من القرآن ولم يكن الأمر مجرد حماس شخصي من بعض الصحابة.

ثالثا: أن القرآن قد تم تدوينه بالكامل في حياة النبي صلى الله عليه وسلم ليتم حفظه إلى جانب الاعتماد على ذاكرة الحفاظ من الصحابة، فما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا والقرآن محفوظ في السطور وفي الصدور.

أما جمعه في عهد أبي بكر رضي الله عنه فقد كان سببه كما ذكر العلماء هو أنه كان قد استحر القتل بالحفاظ في حروب الردة، فألهم الله عمر الذي أخبر عنه الرسول صلى الله عليه وسلم بأنه "إن يكن في هذه الأمة محدثون فعمر"، بأن فكر في جمع القرآن من العسيب واللخاف والعظم في مصحف واحد يكون هو المرجع للمسلمين في حفظ القرآن الكريم، خوفا عليه من أن يضيع.

وعن زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ الأَنْصَارِيَّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – وَكَانَ مِمَّنْ يَكْتُبُ الوَحْيَ – قَالَ: أَرْسَلَ إِلَيَّ أَبُو بَكْرٍ مَقْتَلَ أَهْلِ اليَمَامَةِ وَعِنْدَهُ عُمَرُ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: إِنَّ عُمَرَ أَتَانِي، فَقَالَ: إِنَّ القَتْلَ قَدْ اسْتَحَرَّ يَوْمَ اليَمَامَةِ بِالنَّاسِ، وَإِنِّي أَخْشَى أَنْ يَسْتَحِرَّ القَتْلُ بِالقُرَّاءِ فِي المَوَاطِنِ، فَيَذْهَبَ كَثِيرٌ مِنَ القُرْآنِ إِلَّا أَنْ تَجْمَعُوهُ،

(١) انظر: مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم الزرقاني، ص٢٤٨.

وَإِنِّي لَأَرَى أَنْ تَجْمَعَ القُرْآنَ "، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: قُلْتُ لِعُمَرَ: «كَيْفَ أَفْعَلُ شَيْئًا لَمْ يَفْعَلْهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟» فَقَالَ عُمَرُ: هُوَ وَاللَّهِ خَيْرٌ، فَلَمْ يَزَلْ عُمَرُ يُرَاجِعُنِي فِيهِ حَتَّى شَرَحَ اللَّهُ لِذَلِكَ صَدْرِي، وَرَأَيْتُ الَّذِي رَأَى عُمَرُ، قَالَ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ: وَعُمَرُ عِنْدَهُ جَالِسٌ لاَ يَتَكَلَّمُ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: إِنَّكَ رَجُلٌ شَابٌّ عَاقِلٌ، وَلاَ نَتَّهِمُكَ، «كُنْتَ تَكْتُبُ الوَحْيَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»، فَتَتَبَّعِ القُرْآنَ فَاجْمَعْهُ، فَوَ اللَّهِ لَوْ كَلَّفَنِي نَقْلَ جَبَلٍ مِنَ الجِبَالِ مَا كَانَ أَثْقَلَ عَلَيَّ مِمَّا أَمَرَنِي بِهِ مِنْ جَمْعِ القُرْآنِ، قُلْتُ: «كَيْفَ تَفْعَلاَنِ شَيْئًا لَمْ يَفْعَلْهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟» فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: هُوَ وَاللَّهِ خَيْرٌ، فَلَمْ أَزَلْ أُرَاجِعُهُ حَتَّى شَرَحَ اللَّهُ صَدْرِي لِلَّذِي شَرَحَ اللَّهُ لَهُ صَدْرَ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ، فَقُمْتُ فَتَتَبَّعْتُ القُرْآنَ أَجْمَعُهُ مِنَ الرِّقَاعِ وَالأَكْتَافِ، وَالعُسُبِ وَصُدُورِ الرِّجَالِ، حَتَّى وَجَدْتُ مِنْ سُورَةِ التَّوْبَةِ آيَتَيْنِ مَعَ خُزَيْمَةَ الأَنْصَارِيِّ لَمْ أَجِدْهُمَا مَعَ أَحَدٍ غَيْرِهِ، {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ}(1) إِلَى آخِرِهِمَا، وَكَانَتِ الصُّحُفُ الَّتِي جُمِعَ فِيهَا القُرْآنُ عِنْدَ أَبِي بَكْرٍ حَتَّى تَوَفَّاهُ اللَّهُ، ثُمَّ عِنْدَ عُمَرَ حَتَّى تَوَفَّاهُ اللَّهُ، ثُمَّ عِنْدَ حَفْصَةَ بِنْتِ عُمَرَ(2).

وانتهج زيد في القرآن طريقة دقيقة محكمة وضعها له أبو بكر وعمر فيها ضمان لحياطة كتاب الله بما يليق به من تثبت بالغ وحذر دقيق وتحريات شاملة فلم يكتف بما حفظ في قلبه ولا بما كتب بيده ولا بما سمع بأذنه.

بل جعل يتتبع ويستقصي آخذا على نفسه أن يعتمد في جمعه على مصدرين اثنين: أحدهما ما كتب بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم.

---

(1) سورة التوبة الآية ١٢٨.

(2) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، بَابُ قَوْلِهِ: {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ، حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ} «مِنَ الرَّأْفَةِ» رقم ٤٦٧٩.

والثاني: ما كان محفوظا في صدور الرجال. وبلغ من مبالغته في الحيطة والحذر أنه لم يقبل شيئا من المكتوب حتى يشهد شاهدان عدلان أنه كتب بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم.

يدل على ذلك ما أخرجه ابن أبي داود من طريق يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب قال: قدم عمر فقال: من كان تلقى من رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا من القرآن فليأت به وكانوا يكتبون ذلك في الصحف والألواح والعسب وكان لا يقبل من أحد شيئا حتى يشهد شاهدان.

أما في عهد عثمان فقد اتسعت الفتوحات، واستبحر العمران، وتفرق المسلمون في الأمصار والأقطار ونبتت ناشئة جديدة كانت بحاجة إلى دراسة القرآن. وطال عهد الناس بالرسول والوحي والتنزيل. وكان أهل كل إقليم من أقاليم الإسلام يأخذون بقراءة من اشتهر بينهم من الصحابة فأهل الشام يقرؤون بقراءة أبي بن كعب وأهل الكوفة يقرؤون بقراءة عبد الله بن مسعود وغيرهم يقرأ بقراءة أبي موسى الأشعري. فكان بينهم اختلاف في حروف الأداء ووجوه القراءة بطريقة فتحت باب الشقاق والنزاع في قراءة القرآن أشبه بما كان بين الصحابة قبل أن يعلموا أن القرآن نزل على سبعة أحرف بل كان هذا الشقاق أشد لبعد عهد هؤلاء بالنبوة وعدم وجود الرسول بينهم يطمئنون إلى حكمه ويصدرون جميعا عن رأيه. واستفحل الداء حتى كفر بعضهم بعضا وكادت تكون فتنة في الأرض وفساد كبير. ولم يقف هذا الطغيان عند حد، لهذه الأسباب والأحداث رأى عثمان بثاقب رأيه وصادق نظره أن يتدارك الخرق قبل أن يتسع على الراقع وأن يستأصل الداء قبل أن يعز الدواء فجمع أعلام الصحابة وذوي البصر منهم وأجال الرأي بينه وبينهم في علاج هذه الفتنة ووضع حد لذلك الاختلاف وحسم مادة هذا النزاع. فأجمعوا أمرهم على استنساخ مصاحف يرسل منها إلى الأمصار وأن يؤمر الناس بإحراق كل ما

عداها وألا يعتمدوا سواها، وبذلك يرأب الصدع ويجبر الكسر وتعتبر تلك المصاحف العثمانية الرسمية نورهم الهادي في ظلام هذا الاختلاف ومصباحهم الكشاف في ليل تلك الفتنة وحكمهم العدل في ذاك النزاع والمراء وشفاءهم الناجع من مصيبة ذلك الداء.

وشرع عثمان في تنفيذ هذا القرار الحكيم حول أواخر سنة أربع وعشرين وأوائل سنة خمس وعشرين من الهجرة فعهد في نسخ المصاحف إلى أربعة من خيرة الصحابة وثقات الحفاظ وهم زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام، وهؤلاء الثلاثة الأخيرون من قريش.

وأرسل عثمان إلى أم المؤمنين حفصة بنت عمر فبعثت إليه بالصحف التي عندها وهي الصحف التي جمع القرآن فيها على عهد أبي بكر رضي الله عنه، وأخذت لجنة الأربعة هؤلاء في نسخها وجاء في بعض الروايات أن الذين ندبوا لنسخ المصاحف كانوا اثني عشر رجلا. وما كانوا يكتبون شيئا إلا بعد أن يعرض على الصحابة ويقروا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ على هذا النحو الذي نجده الآن في المصاحف.

ومما تواضع عليه هؤلاء الصحابة أنهم كانوا لا يكتبون في هذه المصاحف إلا ما تحققوا أنه قرآن وعلموا أنه قد استقر في العرضة الأخيرة وما أيقنوا صحته عن النبي صلى الله عليه وسلم مما لم ينسخ. وتركوا ما سوى ذلك، وإنما كتبوا مصاحف متعددة لأن عثمان رضي الله عنه قصد إرسال ما وقع الإجماع عليه إلى أقطار بلاد المسلمين وهي الأخرى متعددة وكتبوها متفاوتة في إثبات وحذف وبدل وغيرها لأنه رضي الله عنه قصد اشتمالها على الأحرف السبعة. وجعلوها خالية من النقط والشكل تحقيقا لهذا الاحتمال أيضا.

وصفوة القول: أن اللفظ الذي لا تختلف فيه وجوه القراءات كانوا يرسمونه بصورة واحدة لا محالة. أما الذي تختلف فيه وجوه القراءات فإن كان لا يمكن رسمه في الخط محتملا لتلك الوجوه كلها فإنهم يكتبونه برسم يوافق بعض الوجوه في مصحف ثم يكتبونه برسم آخر يوافق بعض الوجوه الأخرى في مصحف آخر.

بعد أن أتم عثمان نسخ المصاحف بالصورة السابقة عمل على إرسالها وإنقاذها إلى الأقطار وأمر أن يحرف كل ما عداها مما يخالفها سواء كانت صحفا أم مصاحف. وذلك ليقطع عرق النزاع من ناحية وليحمل المسلمين على الجادة في كتاب الله من ناحية أخرى فلا يأخذوا إلا بتلك المصاحف التي توافر فيها من المزايا ما لم يتوافر في غيرها.

وهذه المزايا هي:

١- الاقتصار على ما ثبت بالتواتر دون ما كانت روايته آحادا.

٢-إهمال ما نسخت تلاوته ولم يستقر في العرضة الأخيرة.

٣- ترتيب السور والآيات على الوجه المعروف الآن. بخلاف صحف أبي بكر رضي الله عنه فقد كانت مرتبة الآيات دون السور.

٤- كتابتها بطريقة كانت تجمع وجوه القراءات المختلفة والأحرف التي نزل عليها القرآن على ما مر بك من عدم إعجامها وشكلها ومن توزيع وجوه القراءات على المصاحف إذا لم يحتملها الرسم الواحد.

٥- تجريدها من كل ما ليس قرآنا كالذي كان يكتبه بعض الصحابة في مصاحفهم الخاصة شرحا لمعنى أو بيانا لناسخ ومنسوخ أو نحو ذلك(١).

وقد استجاب الصحابة لعثمان فحرقوا مصاحفهم واجتمعوا جميعا على

(١) انظر: مناهل العرفان، محمد عبد العظيم الزرقاني ٢٦٠/١.

المصاحف العثمانية، حتى عبد الله بن مسعود الذي نقل عنه أنه أنكر أولا مصاحف عثمان وأنه أبى أن يحرق مصحفه رجع وعاد إلى موافقة الجماعة حين ظهر له مزايا تلك المصاحف العثمانية واجتماع الأمة عليها وتوحيد الكلمة بها.

كما ظهر لنا أن ذلك لم يكن قرارا منفردا من عثمان بل كان قرارا جماعيا من الصحابة وتم تنفيذه بمشهدهم، قال سويد بن غفلة الجعفي:

"يَا أَيُّهَا النَّاسُ لَا تَغْلُوا فِي عُثْمَانَ وَلَا تَقُولُوا لَهُ إِلَّا خَيْرًا [أَوْ قُولُوا لَهُ خَيْرًا] فِي الْمَصَاحِفِ وَإِحْرَاقِ الْمَصَاحِفِ، فَوَ اللَّهِ مَا فَعَلَ الَّذِي فَعَلَ فِي الْمَصَاحِفِ إِلَّا عَنْ مَلَإٍ مِنَّا جَمِيعًا، فَقَالَ: مَا تَقُولُونَ فِي هَذِهِ الْقِرَاءَةِ؟ فَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ بَعْضَهُمْ يَقُولُ: إِنَّ قِرَاءَتِي خَيْرٌ مِنْ قِرَاءَتِكَ، وَهَذَا يَكَادُ أَنْ يَكُونَ كُفْرًا، قُلْنَا: فَمَا تَرَى؟ قَالَ: نَرَى أَنْ نَجْمَعَ النَّاسَ عَلَى مُصْحَفٍ وَاحِدٍ، فَلَا تَكُونُ فُرْقَةٌ، وَلَا يَكُونُ اخْتِلَافٌ، قُلْنَا: فَنِعْمَ مَا رَأَيْتَ قَالَ: فَقِيلَ: أَيُّ النَّاسِ أَفْصَحُ، وَأَيُّ النَّاسِ أَقْرَأُ؟ قَالُوا: أَفْصَحُ النَّاسِ سَعِيدُ بْنُ الْعَاصِ، وَأَقْرَأُهُمْ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ، فَقَالَ: لِيَكْتُبْ أَحَدُهُمَا وَيُمْلِ الْآخَرُ فَفَعَلَا وَجُمِعَ النَّاسُ عَلَى مُصْحَفٍ " قَالَ: قَالَ عَلِيٌّ: وَاللَّهِ لَوْ وُلِّيتُ لَفَعَلْتُ مِثْلَ الَّذِي فَعَلَ"(١).

وبذلك طهر الجو الإسلامي من أوبئة الشقاق والنزاع وأصبح مصحف ابن مسعود ومصحف أبي بن كعب ومصحف عائشة ومصحف علي ومصحف سالم مولى أبي حذيفة. أصبحت كلها وأمثالها في خبر كان مغسولة بالماء أو محروقة بالنيران. {وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيّاً عَزِيزاً}(٢).

ورضي الله عن عثمان فقد أرضى بذلك العمل الجليل ربه وحافظ على

(١) المصاحف، أبو بكر بن أبي داود السجستاني، تحقيق: محمد عبده، ط/١ الفاروق الحديثة-القاهرة، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م، ص٩٧، ٩٨.
(٢) سورة الأحزاب الآية ٢٥.

القرآن وجمع كلمة الأمة وأغلق باب الفتنة ولا يبرح المسلمون يقطفون من ثمار صنيعه هذا إلى اليوم وما بعد اليوم.

أما قوله إن مصحف عثمان بقي غير مكتمل لأن المصاحف التي نسختها اللجنة كانت من غير تعجيم ولا إعراب أي خالية من النقط وعلامات التشكيل، فصحيح حيث كانت هذه النسخ تعتمد على السليقة العربية التي تستغني عن الشكل والإعجام.

قال الزبيدي: "لم تزل العرب العارية في جاهليتها وصدر من إسلامها تبرع في نطق العربية بالسجية وتتكلم على السليقة، حتى فتحت المدائن ومصرت الأمصار، ودونت الدواوين، فاختلط العربي بالنبطي، والنقي الحجازي بالفارسي، ودخل الدين أخلاط الأمم، وسواقط البلدان، فوقع الخلل في الكلام، وبدأ اللحن في ألسنة العوام، فكان أول من استدرك ذلك وحاول إصلاح فساده أبو الأسود ظالم بن عمرو الدؤلي، فألف أبوابا من النحو ذكر فيها عوامل الرفع والنصب والجر والجزم، ودل على الفاعل والمفعول والمضاف"(١).

لذا فقد كان طبيعيا بعد اتساع الفتوحات الإسلامية ودخول كثير من العجم في الإسلام، وتطرق الفساد إلى اللسان العربي وإلى السليقة العربية، أن يشعر المسلمون وبخاصة أولوا الأمر منهم بالخطر على كتابهم، فأمروا بضرورة تحسين كتابة المصحف بالإعجام والإعراب وغيرهما مما يساعد على القراءة الصحيحة، ويرفع دواعي الخطأ فيها.

قال أبو عمرو الداني: "اعْلَم أيدك الله بتوفيقه أَن الَّذِي دَعَا السّلف رَضِي الله عَنْهُم إِلَى نقط الْمَصَاحِف بعد أَن كَانَت خَالِيَة من ذَلِك وعارية مِنْهُ

(١) لحن العوام، تحقيق: رمضان عبد التواب، ط/٢، مكتبة الخانجي-القاهرة، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م، ص٥٩.

وَقت رسمها وَحين توجيهها إِلَى الْأَمْصَار للمعنى الَّذِي بَيناهُ وَالْوَجْه الَّذِي شرحناه مَا شاهدوه من أهل عصرهم مَعَ قربهم من زمن الفصاحة ومشاهدة أَهلهَا من فَسَاد ألسنتهم وَاخْتِلَاف ألفاظهم وَتغَير طباعهم وَدخُول اللّحن على كثير من خَواص النَّاس وعوامهم وَمَا خافوه مَعَ مُرُور الْأَيَّام وتطاول الْأَزْمَان من تزيد ذَلِك وتضاعفه فِيمَن يَأْتِي بعد مِمَّن هُوَ لَا شكّ فِي الْعلم والفصاحة والفهم والدراية دون من شاهدوه مِمَّن عرض لَهُ الْفساد وَدخل عَلَيْهِ اللّحن لكَي يرجع إِلَى نقطها ويصار إِلَى شكلها عِنْد دُخُول الشكوك وَعدم الْمعرفَة ويتحقق بذلك إِعْرَاب الْكَلم وتدرك بِهِ كَيْفيَّة الالفاظ ثمَّ إِنَّهُم لما رَأَوْا ذَلِك وقادهم الِاجْتِهَاد إِلَيْهِ بنوه على وصل الْقَارئ بالكلم دون وَقْفَة عَلَيْهِنَّ فأعربوا أواخرهن لذَلِك لَان الْإِشْكَال أَكثر مَا يدْخل على الْمُبْتَدِئ المتعلم وَالوهم أَكثر مَا يعرض لمن لَا يبصر الْإِعْرَاب وَلَا يعرف الْقِرَاءَة فِي إِعْرَاب أَوَاخِر الْأَسْمَاء وَالْأَفْعَال فَلذَلِك بنوا النقط على الْوَصْل دون الْوَقْف وَأَيْضًا فَإِن الْقَارئ قد يقْرَأ الْآيَة وَالْأَكْثَر فِي نفس وَاحِد وَلَا يقطع على شَيْء من كلمها فَلَا بُد من إِعْرَاب مَا يصله من ذَلِك ضَرُورَة[1].

كذلك خدمة لكتاب الله تعالى حفظا له من أن تحرفه الألسنة عن مواضعه، أو يغير فيه حرف أو حركة عما نزل، وكل ذلك مع توافر العناية بحفظه في الصدور، والحرص على روايته شفاهة وتلقينا خلفا عن سلف، فلم تعتن أمة بكتاب حفظا وتوثيقا وجمعا ورواية وكتابة وضبطا كما اعتنت هذه الأمة بهذا الكتاب العظيم، وقبل ذلك كله، حفظ الله له، بهداية هذه الأمة وتمكينها من القيام بهذا الأمر العظيم، ليكون لهم الأجر على هذا الجهد العظيم، وإلا فقد تكفل الله بحفظه فقال: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ}[2].

---

(١) المحكم في نقط المصاحف، تحقيق: عزة حسن، ط/٢ دار الفكر-دمشق، ١٤٠٧ه، ص١٨، ١٩.
(٢) سورة الحجر الآية ٩.

المبحث الرابع: نقد موقفه من ترتيبه:

افترض بلاشير مسبقا قبل دراسته للقرآن أن يجده على نسق كتابهم المقدس عبارة عن مجموعة من المعلومات التاريخية المسرودة سردا عن حياة محمد، ولكنه فوجئ بنسق مختلف تماما عن ذلك النسق الذي عليه كتابهم، الأمر الذي أدى إلى استعصاء القرآن على فهمه، فحاول أن يعيد ترتيبه طبقا لتاريخ نزوله طمعا في أن يظفر بنسق مشابه لما توقعه ولكن خابت جهوده ووجد نفسه، عاجزا عن الفهم أكثر من ذي قبل.

إن محاولة الإسقاط[1] المستمرة واستخدام ذلك منهجا من قبل أكثر المستشرقين في التعامل مع القرآن الكريم على أساس افتراض أو تصور أن يكون القرآن على نفس نسق كتابهم المقدس ينم عن محدودية الفكر وقصر النظر، إذ كان أولى بهم أن يتعاملوا مع القرآن كما هو لا كما يبدو لهم في تصوراتهم أو كما يتوقعون أن يكون، وهو ما ترتب عليه وقوعهم في كثير من الأخطاء المنهجية التي أدت إلى تخبطهم في أحكامهم على القرآن الكريم ودراستهم له.

ومن الواضح أن بلاشير يرمي من وراء موضوع ترتيب سور القرآن "إلى إظهار التناقض في القرآن الكريم، سواء من حيث الموضوع أو من حيث الأسلوب، وبيان أن هذا الكتاب مفكك الأجزاء، غير متصل الحلقات، وأنه خضع في عملية تأليفه لظروف مختلفة، وتأثر مؤلفه بعوامل متباينة، أثرت في نمط تفكيره وفي طريقة كلامه، وما دام الأمر كذلك فيقينا هذا الكتاب كلام بشر وليس كلام إله، فهذا هدف معروف ومألوف لدينا، بل هو الأساس الذي

(١) الإسقاط: "هو تفسير الأوضاع والمواقف والأحداث بتسليط خبراتنا ومشاعرنا عليها، والنظر إليها منخلال عملية انعكاس لما يدور في داخل نفوسنا". انظر: موسوعة علم النفس، أسعد رزق، ط/٣، المؤسسة العربية للدراسات والنشر- بيروت، ١٤٠٧هـ، ص٤٠.

تقوم عليه الدراسات الاستشراقية للقرآن، وما علينا نحن في هذا المقام إلا أن نبحث عما يفند هذه الادعاءات ويبطل هذه الأكاذيب"(١).

ومن الخطأ أن يظن المستشرقون أن بإمكانهم ترتيب القرآن زمنيا طالما أنهم ينكرون ويجحدون الروايات الصحيحة في هذا الترتيب.

وقد ذكر السيوطي مسألة ترتيب القرآن فقال: وَأَمَّا تَرْتِيبُ السُّوَرِ فَهَلْ هُوَ تَوْقِيفِيٌّ أَيْضًا أَوْ هُوَ بِاجْتِهَادٍ مِنَ الصَّحَابَةِ؟ خِلَافٌ، فَجُمْهُورُ الْعُلَمَاءِ عَلَى الثَّانِي مِنْهُمْ مَالِكٌ وَالْقَاضِي أَبُو بكر في قَوْلَيْهِ، قَالَ ابْنُ فَارِسٍ: جُمِعَ الْقُرْآنُ عَلَى ضَرْبَيْنِ: أَحَدُهُمَا تَأْلِيفُ السُّوَرِ كَتَقْدِيمِ السَّبْعِ الطُّوَالِ وَتَعْقِيبِهَا بِالْمِئِينَ فَهَذَا هُوَ الَّذِي تَوَلَّتْهُ الصَّحَابَةُ وَأَمَّا الْجَمْعُ الْآخَرُ وَهُوَ جَمْعُ الْآيَاتِ فِي السُّوَرِ فَهُوَ تَوْقِيفِيٌّ تَوَلَّاهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَمَا أَخْبَرَ بِهِ جِبْرِيلُ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ. وَمِمَّا اسْتُدِلَّ بِهِ لِذَلِكَ اخْتِلَافُ مَصَاحِفِ السَّلَفِ فِي تَرْتِيبِ السُّوَرِ فَمِنْهُمْ مَنْ رَتَّبَهَا عَلَى النُّزُولِ وَهُوَ مُصْحَفُ عَلِيٍّ كَانَ أَوَّلَهُ اقْرَأْ ثُمَّ الْمُدَّثِّرُ ثُمَّ ن ثُمَّ الْمُزَّمِّلُ ثُمَّ تَبَّتْ ثُمَّ التَّكْوِيرُ وَهَكَذَا إِلَى آخِرِ الْمَكِّيِّ وَالْمَدَنِيِّ وَكَانَ أَوَّلَ مُصْحَفِ ابْنِ مَسْعُودٍ الْبَقَرَةُ ثُمَّ النِّسَاءُ ثُمَّ آلُ عِمْرَانَ عَلَى اخْتِلَافٍ شَدِيدٍ وَكَذَا مُصْحَفُ أُبَيٍّ وَغَيْرِهِ.

وَأَخْرَجَ ابْنُ أَشْتَةَ فِي الْمَصَاحِفِ مِنْ طَرِيقِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ عَيَّاشٍ عَنْ حِبَّانَ ابن يَحْيَى عَنْ أَبِي مُحَمَّدٍ الْقُرَشِيِّ قَالَ: أَمَرَهُمْ عُثْمَانُ أَنْ يُتَابِعُوا الطُّوَالَ فَجُعِلَتْ سُورَةُ الْأَنْفَالِ وَسُورَةُ التَّوْبَةِ فِي السَّبْعِ وَلَمْ يُفْصَلْ بَيْنَهُمَا بـ " بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ "، وَذَهَبَ إِلَى الْأَوَّلِ جَمَاعَةٌ مِنْهُمُ الْقَاضِي فِي أَحَدِ قَوْلَيْهِ(٢).

وَقَالَ الْكِرْمَانِيُّ: "أول الْقُرْآن سُورَة الْفَاتِحَة ثمَّ الْبَقَرَة ثمَّ آل عمرَان على هَذَا التَّرْتِيب إِلَى سُورَة النَّاس وَهَكَذَا هُوَ عِنْد الله فِي اللَّوْح الْمَحْفُوظ وَهُوَ على

(١) آراء المستشرقين الفرنسيين حول القرآن الكريم، أحمد نصري، ص١٨١، ١٨٢.
(٢) الإتقان في علوم القرآن ٢١٦/١.

هَذَا التَّرْتِيب كَانَ يعرضه عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَام على جِبْرِيل عَلَيْهِ السَّلَام كل سنة، أَي مَا كَانَ يجْتَمع عِنْده مِنْهُ وَعرضه عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَام فِي السّنة الَّتِي توفى فِيهَا مرَّتَيْنِ وَكَانَ آخر الْآيَات نزولا {وَاتَّقوا يَوْمًا ترجعون فِيهِ إِلَى الله} فَأمره جِبْرِيل أَن يَضَعهَا بَين آيتي الرِّبَا وَالدّين[١]، فَأَمَرَهُ جِبْرِيلُ أَنْ يَضَعَهَا بَيْنَ آيَتَيِ الرِّبَا وَالدَّيْنِ"[٢].

وَقَالَ الطِّيبِيُّ: أُنْزِلَ الْقُرْآنُ أَوَّلًا جُمْلَةً وَاحِدَةً مِنَ اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا ثُمَّ نَزَلَ مُفَرَّقًا عَلَى حَسَبِ الْمَصَالِحِ ثُمَّ أُثْبِتَ فِي الْمَصَاحِفِ عَلَى التَّأْلِيفِ وَالنَّظْمِ الْمُثْبَتِ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ.

وَقَالَ الْبَيْهَقِيُّ فِي الْمَدْخَلِ: كَانَ الْقُرْآنُ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُرَتَّبًا سُوَرُهُ وَآيَاتُهُ عَلَى هَذَا التَّرْتِيبِ إِلَّا الْأَنْفَالَ وَبَرَاءَةَ لِحَدِيثِ عُثْمَانَ السَّابِقِ.

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ أَنَّهُ قَالَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ وَالْكَهْفِ وَمَرْيَمَ وَطه وَالْأَنْبِيَاءِ: "إِنَّهُنَّ مِنَ الْعِتَاقِ الْأُوَلِ وَهُنَّ مِنْ تِلَادِي"[٣]، فَذَكَرَهَا نَسَقًا كَمَا اسْتَقَرَّ تَرْتِيبُهَا.

وَقَالَ أَبُو جَعْفَرٍ النَّحَّاسُ: الْمُخْتَارُ أَنَّ تَأْلِيفَ السُّوَرِ عَلَى هَذَا التَّرْتِيبِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِحَدِيثِ وَاثِلَةَ: "أُعْطِيتُ مَكَانَ التَّوْرَاةِ السَّبْعَ الطُّوَالَ ... " الْحَدِيثَ[٤].

قَالَ السيوطي: "فَهَذَا الْحَدِيثُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ تَأْلِيفَ الْقُرْآنِ مَأْخُوذٌ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَنَّهُ مِنْ ذَلِكَ الْوَقْتِ وَإِنَّمَا جُمِعَ فِي الْمُصْحَفِ

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٨١.
(٢) البرهان في توجيه متشابه القرآن، تحقيق: عبد القادر أحمد عطا، ط/ دار الفضيلة، ص٦٨.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن باب سورة بني إسرائيل، رقم ٤٧٠٨
(٤) أخرجه أحمد في مسنده بسند حسن.

عَلَى شَيْءٍ وَاحِدٍ، لِأَنَّهُ قَدْ جَاءَ هَذَا الْحَدِيثُ بِلَفْظِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى تَأْلِيفِ الْقُرْآنِ، وَقَالَ ابْنُ الْحَصَّارِ: تَرْتِيبُ السُّوَرِ وَوَضْعُ الْآيَاتِ مَوَاضِعَهَا إِنَّمَا كَانَ بِالْوَحْيِ"(١).

وَقَالَ ابْنُ حَجَرٍ: "تَرْتِيبُ بَعْضِ السُّوَرِ عَلَى بَعْضِهَا أَوْ مُعْظَمِهَا لَا يُمْتَنَعُ أَنْ يَكُونَ تَوْقِيفِيًّا. قَالَ: وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى أن ترتيب المصحف كان توقيفيا مَا أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ عَنْ أَوْسِ بْنِ أَبِي أَوْسٍ حُذَيْفَةَ الثَّقَفِيِّ قَالَ: كُنْتُ فِي الْوَفْدِ الَّذِينَ أَسْلَمُوا مِنْ ثَقِيفٍ ... الْحَدِيثَ، وَفِيهِ فَقَالَ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "طَرَأَ عَلَيَّ حِزْبِي مِنَ الْقُرْآنِ فأردت ألا أَخْرُجَ حَتَّى أَقْضِيَهُ "، فَسَأَلْنَا أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قُلْنَا: كَيْفَ تُحَزِّبُونَ الْقُرْآنَ؟ قَالُوا نُحَزِّبُهُ ثَلَاثَ سُوَرٍ وَخَمْسَ سُوَرٍ وَسَبْعَ سُوَرٍ وَتِسْعَ سُوَرٍ وَإِحْدَى عَشْرَةَ وَثَلَاثَ عَشْرَةَ وَحِزْبُ الْمُفَصَّلِ مِنْ "ق" حَتَّى نَخْتِمَ. قَالَ: فَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ تَرْتِيبَ السُّوَرِ عَلَى مَا هُوَ فِي الْمُصْحَفِ الْآنَ كَانَ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. قَالَ: وَيُحْتَمَلُ أَنَّ الَّذِي كَانَ مُرَتَّبًا حِينَئِذٍ حِزْبُ الْمُفَصَّلِ خَاصَّةً بِخِلَافِ مَا عَدَاهُ، قُلْتُ: وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ توقيفي كَوْنُ الْحَوَامِيمِ رُتِّبَتْ وَلَاءً وَكَذَا الطَّوَاسِينِ وَلَمْ تُرَتَّبِ الْمُسَبِّحَاتُ وَلَاءً بَلْ فُصِلَ بَيْنَ سُوَرِهَا وَفُصِلَ بَيْنَ طسم الشُّعَرَاءِ وَطسم الْقَصَصِ بطس مَعَ أَنَّهَا أَقْصَرُ مِنْهُمَا وَلَوْ كَانَ التَّرْتِيبُ اجْتِهَادِيًّا لَذُكِرَتِ الْمُسَبِّحَاتُ وَلَاءً وَأُخِّرَتْ طس عَنِ الْقَصَصِ. وَالَّذِي يَنْشَرِحُ لَهُ الصَّدْرُ مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ الْبَيْهَقِيُّ وَهُوَ أَنَّ جَمِيعَ السُّوَرِ تَرْتِيبُهَا تَوْقِيفِيٌّ إِلَّا بَرَاءَةَ وَالْأَنْفَالَ وَلَا يَنْبَغِي أَنْ يستدل بقراءته سُوَرًا وَلَاءً عَلَى أَنَّ تَرْتِيبَهَا كَذَلِكَ"(٢).

أما دعواه أن ترتيب القرآن جاء وفقا لتدرج هبوطي في الطول بحيث صار يقرأ القرآن بتاريخ معكوس، وأن هذا التنظيم في مصحف عثمان، كان

(١) انظر: الإتقان في علوم القرآن، ٢١٩/١.
(٢) فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ط/ دار المعرفة-بيروت، ١٣٧٩هـ، ٤٢/٩.

نتيجة إحداث خلل لا دواء له في الترتيب التاريخي، للنصوص التي نزلت على محمد -صلى الله عليه وسلم-، وزعمه في ثنايا عرضه لهذا الرأي، أن هذا الترتيب من صنع البشر، لأنه يبدو مطابقا لبعض العادات الخاصة بالساميين، وأن فقهاء اللغة العراقيين في القرنين الثامن والتاسع كانوا يضعون القصائد الطوال في مقدمة دواوينهم التي تضم آثار الشعر العربي القديم.

وقد سبق أن أثبتنا أن هذا الترتيب ليس بشريا ولم يتصرف فيه الصحابة باجتهادهم حتى يجعلوه على نسق دواوين الشعر السامية كما ينبغي، هذا على فرض معرفة الصحابة بدواوين أشعار الأمم الأخرى، وهو أمر لم يثبت.

أما ما جاء في بعض الروايات من وجود مصاحف لبعض الصحابة تخالف الترتيب المعروف الآن كمصحف عبد الله بن مسعود أو مصحف أبي، أو ما روي من ترتيبه على حسب ترتيب النزول كمصحف علي رضي الله عنه، فالجواب عنه من وجهين:

الأول: أن هذه الروايات ضعيفة لمخالفة ما استقر عليه الإجماع من ترتيب المصحف كما هو عليه الآن.

الثاني: أنه على فرض صحة هذه الروايات فتحمل على ما كان قبل العرضة الأخيرة التي كان فيها الترتيب النهائي من جبريل عليه السلام.

المبحث الخامس: نقد موقفه من تفاسيره.

حاول بلاشير في فصل خاص من كتابه هذا أن يرصد جهود المفسرين وتاريخ تفسير القرآن الكريم، واتجهات المفسرين، وتتبع التطور الذي مرت به تلك التفاسير.

والواقع أن تفسير القرآن الكريم قد بدأ في زمن النبي صلى الله عليه وسلم حيث كان الصحابة يسألون النبي صلى الله عليه وسلم عن بعض ما يغمض عليهم من الآيات فيجيبهم كما حدث حين سألوه عن قوله تعالى: "{الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ}[(١)]، فقالوا يا رسول الله وأينا لم يظلم نفسه، ففسر لهم النبي صلى الله عليه وسلم الظلم هنا بالشرك، مستدلا لهم على ذلك بقوله تعالى على لسان العبد الصالح لقمان: {إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ}[(٢)][(٣)].

وبعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم تولى الصحابة تفسير القرآن للتابعين بحكم لغتهم السليمة التي لم تتغير بعجمة، وبحكم معايشتهم لنزول الوحي وعلمهم بأسباب نزوله وناسخه ومنسوخه ونحو ذلك من الأمور اللازمة لتفسير القرآن.

وقد اشتمل هذا الفصل من كتابه على جملة من الحقائق والوقائع المتصلة بعلم التفسير من حيث نشأته وتاريخه وتطوره واتجاهاته.

وبلاشير يشترط في المفسر أن يكون غواصا في تحليل الألفاظ من الناحية اللغوية والأسلوبية، ولكنه يقحم كلمة تعكس محاولته الخبيثة لاصطناع أية مناسبة للطعن في القرآن من طرف خفي بأسلوب خبيث حيث

---

(١) سورة الأنعام الآية ٨٢.
(٢) سورة لقمان الآية ١٣.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن باب قول الله تعالى: "واتخذ الله إبراهيم خليلا"، رقم ٣٣٦٠.

يقول: "إن معرفة لا مثيل لها للمصحف تمكننا من أن نكتشف فيه مقاطع تؤدي إلى تفجير عظمة الحقائق المنزلة سواء أكانت هذه المقاطع متكاملة أو متعارضة"(١).

لاحظ كلمتي متكاملة أو متعارضة، إنه يحاول أن يشير إلى وجود نقص أو تعارض في آيات الذكر الحكيم، فهلا بين لنا نموذجا من ذلك؟

إنه فقط رمي بالباطل ومحض افتراء تنفيثا عن حقده على القرآن وشعوره بالعجز عن الإفصاح بالطعن فيه.

وقد صنف بلاشير المفسرين في فئتين كبيرتين:

الأولى: فئة تفسر القرآن بالمأثور عن الصحابة والتابعين وسلف الأمة من العلماء المشهورين بالتفسير المقدمين رتبة المتقدمين زمنا.

الثانية: فئة تفسر القرآن بأسلوب تحليلي ومن خلال الخوض في مسائل لغوية أو كلامية أو فلسفية، وهو ما يعرف بالتفسير بالرأي.

ويعرج بلاشير على بعض المفسرين الذين حشدوا تفاسيرهم بالقصص التي تجتذب العوام وتناسب ميولهم الشعبية مما حملهم على تضمينها كثيرا من الإسرائيليات المروية عن كعب الأحبار ووهب بن منبه، كتلك التفاسير المنسوبة إلى السدي ومقاتل البلخي.

وقد ذكرنا في الفصل السابق رصده لهذه التفاسير على اختلاف مشاربها واتجاهاتها سواء في ذلك ما اعتمد منها على الروايات المأثورة أو الإسرائيليات والقصص الشعبي أو الاتجاه الكلامي أو الرمزي الصوفي، أو العلمي، أو الإصلاحي.

وقد ظهر لنا من خلال هذا الفصل إلمامه بتفاسير القرآن واتجاهاتها وتطورها، وكذلك علمه بالحركات الإصلاحية الحديثة وصلته بالقرآن والسنة،

(١) القرآن، نزوله تدوينه ترجمته تأثيره، ص١٠٩، ١١٠.

كما في حديثه عن مدرسة الإمام محمد بن عبد الوهاب في الجزيرة العربية، وكذلك مدرسة الإمام محمد عبده في مصر، ومدرسة صاحب المنار الشيخ محمد رشيد رضا.

المبحث السادس: نقد موقفه من علوم القرآن.

تناول بلاشير مسألة القراءات القرآنية محاولا شأنه شأن كثير من المستشرقين إلى استغلالها في إيجاد مطاعن في القرآن الكريم، ووثاقة النص القرآني.

فنجده قد عزى اختلاف القراءات إلى عدم ثبات الخط العربي ونقصانه وعدم ضبطه، الأمر الذي أدي –برأيه– إلى عدم ضبط المصحف، وفتحا بابا للاختلاف في قراءته.

وهذا الأمر لا دليل لهم عليه، ولا مصدر لهم فيه إلا أحقاد قلوبهم ورغبتهم الجامحة في نسبة أية خطأ للقرآن الكريم، بل الدليل على خلافه، فقد تواتر عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله: "إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف"، وما كان من اختلاف بين عمر بن الخطاب وهشام بن حكيم في قراءة كل منهما سورة الفرقان على غير ما سمعها الآخر من رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فَعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدٍ القَارِيِّ، أَنَّهُ قَالَ: سَمِعْتُ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يَقُولُ: سَمِعْتُ هِشَامَ بْنَ حَكِيمِ بْنِ حِزَامٍ، يَقْرَأُ سُورَةَ الفُرْقَانِ عَلَى غَيْرِ مَا أَقْرَؤُهَا، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَقْرَأَنِيهَا، وَكِدْتُ أَنْ أَعْجَلَ عَلَيْهِ، ثُمَّ أَمْهَلْتُهُ حَتَّى انْصَرَفَ، ثُمَّ لَبَّبْتُهُ بِرِدَائِهِ، فَجِئْتُ بِهِ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقُلْتُ: إِنِّي سَمِعْتُ هَذَا يَقْرَأُ عَلَى غَيْرِ مَا أَقْرَأْتَنِيهَا، فَقَالَ لِي: «أَرْسِلْهُ»، ثُمَّ قَالَ لَهُ: «اقْرَأْ»، فَقَرَأَ، قَالَ: «هَكَذَا أُنْزِلَتْ»، ثُمَّ قَالَ لِي: «اقْرَأْ»، فَقَرَأْتُ، فَقَالَ: «هَكَذَا أُنْزِلَتْ إِنَّ القُرْآنَ أُنْزِلَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ، فَاقْرَءُوا

مِنْهُ مَا تَيَسَّرَ»[١].

وليس المقصود بالأحرف السبعة هنا حصر العدد في سبع، فقد جرت اللغة العربية على استخدام لفظ السبع والسبعين والسبعمائة للدلالة على الكثرة وليس الحصر في تلك الأعداد.

قال ابن حجر في بيان المراد بالسبعة في الحديث: "وقِيل لَيْسَ الْمُرَادُ بِالسَّبْعَةِ حَقِيقَةُ الْعَدَدِ بَلِ الْمُرَادُ التَّسْهِيلُ وَالتَّيْسِيرُ وَلَفْظُ السَّبْعَةِ يُطْلَقُ عَلَى إِرَادَةِ الْكَثْرَةِ فِي الْآحَاد كَمَا يُطلق السّبْعين فِي الْعَشَرَاتِ وَالسَّبْعُمِائَةُ فِي الْمِئِينَ وَلَا يُرَادُ الْعَدَدُ الْمُعَيَّنُ وَإِلَى هَذَا جَنَحَ عِيَاضٌ وَمَنْ تبعه"[٢].

إذن فالاختلاف في القراءات كان موجودا في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم ينشأ كما زعم بلاشير بعد وفاته ولا بسبب خط المصحف وعدم وجود النقط والحركات، بل ذلك راجع إلى تلقينه صلى الله عليه وسلم لأصحابه بقراءات مختلفة.

بل لقد اختلفت نسخ المصاحف التي بعث بها عثمان بن عفان إلى الأمصار بحسب القراءة المشتهرة عند كل مصر منها إذا لم يكن هناك وسيلة للدلالة بالرسم عليها، كزيادة الواو في بعض المواضع في مصحف الشاميين، وكذلك زيادة من في قوله تعالى: {وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}[٣].

من ذلك يتضح لنا أن القراءات كلها نزلت من عند الله على رسوله

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الخصومات باب كلام الخصوم بعضهم في بعض، رقم ٢٤١٩. ومسلم في صحيحه كتاب صلاة المسافرين وقصرها باب بيان أن القرآن على سبعة أحرف وبيان معناه، رقم ٨١٨.
(٢) فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ٢٣/٩.
(٣) سورة التوبة الآية ١٠٠.

صلى الله عليه وسلم، وقد أقرأ النبي صلى الله عليه وسلم كل مجموعة من الصحابة بقراءة منها، ولما تفرقوا في الأمصار أقرأ كل منهم من نزل مصرهم بما أقرأه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكلها قراءات صحيحة مروية بالطرق الصحيحة.

فهذه القراءات أخذت بطريق السماع لا بالتشهي، ولا بالهوى.

وتعدد القراءات ليس مطعنا في القرآن بل له حكم عظيمة منها:

١- بلاغة القرآن ورصانة أسلوبه الذي لا يرقى إليه أفصح رجل عربي في ذلك الوقت.

٢- الإعجاز الذي أثبته القرآن في وجه العرب الفصحاء والبلغاء منهم، حيث عجزوا عن مضاهاة أسلوب القرآن، فحاولوا عملا وفشلوا في النسج على منواله، فوصل بهم العجز إلى أنهم لم يستطيعوا الإتيان ولو بآية واحدة من مثله.

٣- الإيجاز الذي لا يخل بالمعنى بخلاف الإيجاز في أسلوب العرب الذي يغمض المعنى ويعقد الأسلوب، ويغرب على السامع.

المبحث السابع: نقد موقفه من ترجمته.

اعترف بلاشير في مقدمة كتابه أن ترجمة الغرب للقرآن كانت بدافع الرغبة في تشويهه وتشويه الإسلام عموما، بل إنها كانت مبنية أساسا على صورة مشوهة موجودة لديهم مسبقا عنه، ومن ثم فلم تكن هذه الترجمات أمينة ولا موضوعية ولا علمية، كما اعترف بأنهم كانوا يتصورون الإسلام نفسه على أنه عمل منشق يدعي أنه ملهم عن الله بينما هو في الواقع – بحسب تصورهم- قد تلقى تعليمه من راهب أريوسي تخالف عقيدته العقيدة المعتمدة لدى الكنيسة.

هكذا كان يتصور الرهبان الإسلام ويصورونه للعوام من الأوربيين، فكانوا يمعنون في تشويهه وتقبيحه في أعينهم خشية أن يتأثروا بالإسلام، الذي كان ينتشر بسرعة في أوساط أهل الأديان الأخرى وبخاصة النصارى منهم، ليصدق فيهم قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ}(١).

ولما كان القرآن الكريم هو الكتاب المقدس لدى المسلمين والمعجزة الخالدة لنبي الإسلام، ومصدر العقيدة والشريعة الإسلامية، بل وهو سر قوة هذه الأمة وتماسكها، أدركوا أنه لن يتم لهم ما أرادوا من التشويه إلا بالطعن في القرآن، لذلك خرجت أول ترجمة للقرآن من دير كلوني بجنوب فرنسا سنة ١١٤٣م، بتوجيه وإشراف رئيس الدير الراهب بطرس المحترم، وقد باشر الترجمة راهبان أحدهما إنجليزي ويدعى روبرت كيتونالرتيني، والآخر ألماني ويدعى هرمان الدالماتي.

وقد وصفت هذه الترجمة بأنها سيئة للغاية، حيث لم تلتزم بالأصول العلمية للترجمة ولا بأمانة النقل، بالإضافة إلى ما تطفح به من جهل ظاهر

(١) سورة التوبة الآية ٣٤.

باللغة العربية وبعلوم القرآن ومتطلبات تفسيره.

ثم توالت الترجمات الأوربية الأخرى للقرآن، حتى ظهر العشرات منها وكلها تتفق في التشويش والتشويه والرغبة الجامحة في الطعن في القرآن وفي الإسلام.

ومن هذا يتضح لنا قضية خطيرة هي أن الغرب لم يكن موضوعيا في علاقته بالإسلام والمسلمين، بل لقد ابتدأ هذه العلاقة بالعداء والتشويه، وعلى هذا الأساس قامت الدعايا في أوربا في العصور الوسطى للحروب الصليبية ضد المسلمين الذين يدنسون قبر المسيح ويضطهدون نصارى الشرق، وذلك في الحقيقة إفك مبين.

وعلى هذا الأساس أيضا تقوم الدعايا الغربية في ذلك العصر على تشويه الإسلام، ووصمه بأنه إرهاب، وأنه دين لا يقبل الآخر، وأنه قد انتشر بحد السيف، وأنه رجعي يعوق أية رغبة في التقدم، بل قامت دعاياهم تلك على ترويج تلك الأفكار المضللة حتى في مجتمعاتنا الإسلامية وبين المسلمين، مستغلين بذلك جهل كثير منهم بالإسلام وحقيقته، وانتشار الأمية الدينية بين بعض الأوساط من المسلمين.

كل ذلك قد ساهم فيه تلك الترجمات المضللة التي قام بها القساوسة بالأساس في العصور الوسطى، وعليها بنى المستشرقون في العصر الحديث مواقفهم من القرآن خصوصا ومن الإسلام عموما، وراحوا يبثون افتراءاتهم على الإسلام في كتبهم، ومن جملتها تلك الفرية التي ذكرها بلاشير في مقدمة كتابه التي ساقها للحديث عن تاريخ ترجمة القرآن الكريم في أوربا، وهي التشكيك في مصدر القرآن الكريم، وعزوه إلى راهب أريوسي، يدعون أنه هو الذي تلقى منه النبي صلى الله عليه وسلم القرآن.

وهي فرية سبقهم إليها مشركو قريش حين قالوا ما حكاه القرآن

عنهم بقوله: {وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ}، ورد عليهم بقوله في نفس الآية: {لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ}[1].

ومع ظهور هذه الحقائق أمام بلاشير وإقراره بها نجده يثني على ترجمة المستشرق الألماني نولدكه التي تسير في نفس الخط العام للترجمات الأوربية المضللة، التي لا أرب لها سوى التشويه المتعمد للقرآن، والتي من أهم سماتها البعد عن الأمانة والموضوعية.

بل إننا نجد بلاشير نفسه يضع ترجمة للقرآن تحذو نفس الحذو وتسلك نفس المسلك وتسير على درب سابقيه في تشويه القرآن عمدا، وإن تظاهر بأنه يريد الوصول إلى الحقيقة.

وقد حاول بلاشير التماس العذر للأوربيين في ترجماتهم المضللة للقرآن الكريم بجهلهم باللغة العربية، ولكن هذا العذر لا يثبت لهم إذا عرفنا أنهم كانوا يتعلمون اللغة العربية وبينهم من يتقنها وقد ترجموا العديد من الكتب العربية في الفلسفة والعلوم المختلفة، إذن فالأمر لم يكن خطأ ناتجا عن عدم إلمام بلغة القرآن، إنما كان حقدا زعافا عليه، ورغبة متأججة في الطعن فيه والكيد له وتشويهه في نفوس عوام الأوربيين وصدا عن سبيل الله.

---

(١) سورة النحل الآية ١٠٣.

المبحث الثامن: نقد موقفه من تأثير القرآن في الحياة الإسلامية والمجتمع الإسلامي.

تناول بلاشير في الفصل الأخير من كتابه مدى تأثير القرآن في نفوس المسلمين وفي الحياة الإسلامية، ومدى عناية هذه الأمة بكتابها أفرادا وجماعات صغارا وكبارا.

وقد وصف بلاشير تجربته في المغرب العربي وما شاهده هناك من مظاهر تأثير القرآن في حياة الناس واهتمامهم بتعليمه لصغارهم منذ نعومة أظفارهم.

وإنك لتشعر بالمرارة في حلق بلاشير وهو يحكى مدى إجلال المسلمين لكتابهم، باعتباره كتاب الله المعجز المنزل على رسوله صلى الله عليه وسلم فيحتفون به غاية الحفاوة ويعتزون به منتهى الاعتزاز، لقد كان بلاشير يتمنى أن يجد مثل هذا الأثر الحياتي العظيم لكتابهم المقدس الذي تحول إلى وسيلة لاستجلاب النوم لمن يفكر منهم أن يقرأه، وكان يتمنى كذلك أن يجد مثل هذه الحفوة والاعتزاز من بني ديانته بكتابهم كما يفعل المسلمون.

وقد عبر بلاشير عن إعجابه ودهشته لأولئك الأطفال الصغار الذين يستطيعون حفظ القرآن كاملا في سن مبكرة، رغم ضعف الإمكانيات لمكان التحفيظ الذي يكون عادة في مبنى قديم أو خيمة وكأنه يعقد مقارنة غير معلنة بين ذلك وبين كتابهم الذي لا يستطيع أكابر رجال الدين عندهم أن يقرأوا إصحاحا كاملا منه إلا نظرا، أما مسألة الحفظ والاستظهار فأبعد ما تكون عن توافر اهتماماتهم.

كما بين أثر تعليم الأطفال منذ سن مبكرة السور التي تشتمل على أساسيات العقيدة.

لقد أدرك بلاشير أن سر تماسك هذه الأمة وتمسكها بدينها هو هذا الكتاب الذي طالما تمسكت به بقيت بمأمن من أية مؤثرات عقدية أو فكرية مناوئة أو مضللة.

فكأن بلاشير يلفت نظر الغرب إلى قضية خطيرة وهي محاولة القضاء على مكانة هذا الكتاب في قلوب المسلمين، ومكانة حفاظه ومعلميه في المجتمع الإسلامي، حتى يتسنى لهم تحقيق مآربهم في غزوها فكريا والسيطرة عليها.

الخاتمة

عرضت في ما سبق أهم الموضوعات التي توضح موقف المستشرق الفرنسي ريجيس بلاشير في كتابه موضوع الدراسة، وقد تبين من خلال هذا العرض، أن بلاشير سار على نهج من سبقه من المستشرقين في محاولة الطعن في القرآن الكريم وإن حاول هو أن يخفي ذلك وأن يتظاهر بالموضوعية والحيادية والأمانة العلمية، إلا أن حقيقة مواقفه المسبقة وأهدافه من الدراسة للقرآن الكريم، برزت بشكل واضح في هذه الدراسة، وبدا تعصبه الشديد ضد القرآن، ورغبته في إيجاد ثغرة أو مناسبة للتشكيك في مصدره أو لغته أو ترتيبه أو وثاقته.

كما أن هذه الدراسة تفضح جهله باللغة العربية وغلبة عجمته على دراسته الطويلة للأدب العربي التي لم تغن عنه شيئا، ولم ترق به إلى فهم لغة القرآن، وإدراك ما بها من إعجاز.

إن بلاشير وأمثاله من المستشرقين، لا ينهجون المنهج العلمي في دراساتهم الاستشراقية للقرآن عموما أو للقرآن خصوصا، إنما يضعون النتائج مسبقا قبل شروعهم في الدراسة، ثم يبحثون عما يثبتون به هذه النتائج التي تعبر عن تعصبهم وحقدهم على الإسلام وكتابه ونبيه.

وقد تبين لنا ولعله تبين كذلك للقارئ الكريم من خلال نقدنا لهذه الدراسة التي قام بها هذا المستشرق ما تحتوي عليه من أخطاء علمية ومنهجية أو مغالطات تعمد هو إدراجها ليوهم القارئ أنه باحث أمين، وأن ما ذكره هو مطاعن حقيقية، والواقع أنها أوهام وأهواء لا مكان لها إلا في عقله السقيم وخياله المريض هو وأضرابه من المستشرقين المتعصبين.

لقد عني بلاشير بدراسة القرآن الكريم كما ذكرنا في الفصل الأول من هذا البحث، وترجمه، وحاول أن يعبث بترتيبه أو يوظف دراساته للتشكيك في

القرآن ولكنه عجز، وذهبت محاولاته أدراج الرياح، وتكشفت حقيقة أغراضه، وفشله الذريع في الكيد للإسلام وللقرآن.

وهكذا بقي الإسلام متحديا لهم، مستعصيا على مطاعنهم، يريدون الكيد له، فيثبتون جهلهم وضعف عقولهم وسوء نواياهم، {يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ}(١).

(١) سورة التوبة الآية ٣٢.

فهرس المراجع

١- القرآن الكريم، تنزيل من حكيم حميد.
٢- آراء المستشرقين حول القرآن الكريم وتفسيره دراسة ونقد، عمر إبراهيم رضوان، ط/١ دار طيبة للنشر التوزيع- الرياض، ١٤١٣هـ.
٣- آراء المستشرقين حول مفهوم الوحي عرض ونقد، إدريس حامد محمد، مجلة معهد الإمام الشاطبي للدراسات القرآنية، العدد ٢ ذو الحجة ١٤٢٧هـ.
٤- آراء المستشرقين الفرنسيين في القرآن الكريم دراسة نقدية، أحمد نصري، ط/١، دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع- الرباط، ١٤٣٠هـ.
٥- الإتقان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط/ الهيئة المصرية العامة للكتاب-القاهرة، ١٣٩٤هـ-١٩٧٤م.
٦- أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها: التبشير-الاستشراق-الاستعمار، دراسة وتحليل وتوجيه، عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، ط/٨، دار القلم- دمشق، ١٤٢٠هـ.
٧- الاستشراق .. تعريفه، مدارسه، آثاره، محمد فاروق النبهان، ط/ منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (إيسيسكو)- الرباط، ١٤٣٣هـ.
٨- الاستشراق قراءة نقدية، صلاح الجابري، ط/١ دار الأوائل للنشر والتوزيع والخدمات الطباعية- دمشق، ١٤٣٠هـ.
٩- الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، محمود حمدي زقزوق، ط/ دار المعارف- القاهرة، ١٤١٨هـ.
١٠- الاستشراق والغارة على الفكر الإسلامي، محمد عبد الله الشرقاوي، ط/ دار الهداية للطباعة والنشر والتوزيع- القاهرة، بدون تاريخ.

١١- الاستشراق والمستشرقون ما لهم وما عليهم، مصطفى السباعي، ط/ دار الوراق للنشر والتوزيع- القاهرة، بدون تاريخ.

١٢- الاستشراق ومناهجه في الدراسات الإسلامية، سعدون السرموك، ط/ دار المناهج للنشر والتوزيع- عَمّان، ١٤٣١هـ.

١٣- الإسلام في قفص الاتهام، شوقي أبو خليل، ط/٤ دار الفكر- بيروت، ١٤٠٠هـ.

١٤- إعجاز القرآن، أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني، تحقيق: السيد أحمد صقر، ط/٥ دار المعارف-القاهرة، ١٩٩٧م.

١٥- أعلام النبوة، أبو الحسن علي بن محمد الماوردي، ط/١، دار ومكتبة الهلال-بيروت، ١٤٠٩هـ.

١٦- الأعلام، خير الدين الزركلي، ط/١٥، دار العلم للملايين، ١٤٠٣هـ.

١٧- البرهان في توجيه متشابه القرآن، أبو القاسم برهان الدين محمود بن حمزة الكرماني، تحقيق: عبد القادر أحمد عطا، ط/ دار الفضيلة.

١٨- البرهان في علوم القرآن، أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط/١، دار إحياء الكتب العربية-القاهرة، ١٣٧٦هـ-١٩٥٧م.

١٩- تاج العروس من جواهر القاموس، أبو الفيض محمد بن محمد بن عبد الرزاق الزبيدي، تحقيق: مجموعة من المحققين، ط/ القاهرة: دار الهداية، بدون تاريخ.

٢٠- تاريخ الأدب العربي، أحمد حسن الزيات، دار نهضة مصر- القاهرة، بدون تاريخ.

٢١- التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، ط/ الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤م.

٢٢- تطور الاستشراق في دراسة الفكر العربي، عبد الجبار ناجي، ط/ دار الجاحظ- بغداد، ١٤٠١هـ.

٢٣- تفسير القرآن العظيم، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي، تحقيق: سامي محمد سلامة، ط/٢ دار طيبة للنشر والتوزيع، ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م.

٢٤- جواهر البلاغة، أحمد إبراهيم الهاشمي، ط/ المكتبة العصرية-بيروت، ١٩٦٣م.

٢٥- دراسات في علوم القرآن، فهد الرومي، ط/١٢، بدون، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م.

٢٦- دفاع عن الإسلام، لورافيشيافاغليري، تعريب: منير البعلبكي، ط/٥ دار العلم للملايين-بيروت، ١٩٨١م.

٢٧- دفاع عن القرآن ضد منتقديه، عبد الرحمن بدوي ، ط/ الدار العالمية للكتب والنشر، ١٤١٩هـ.

٢٨- دفاع عن القرآن ضد منتقديه، عبد الرحمن بدوي، ط/ الدار العالمية للكتب والنشر، ١٤١٩هـ.

٢٩- الرسالة، أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي، تحقيق: أحمد محمد شاكر، ط/٢، مكتبة التراث- القاهرة، ١٣٩٣هـ.

٣٠- الرسالة، محمد بن إدريس بن عباس بن عثمان بن شافع الشافعي، تحقيق: أحمد محمد شاكر، ط/٢، مكتبة التراث- القاهرة، ١٣٩٣هـ.

٣١- الرسائل الأدبية، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، ط/٢ دار ومكتبة الهلال-بيروت، ١٤٢٣هـ.

٣٢- السنن الكبرى، أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، ط/٣ دار الكتب العلمية-بيروت، ١٤٢٤هـ-

٢٠٠٣م.

٣٣- السيرة النبوية، أبو محمد جمال الدين عبد الملك بن هشام، تحقيق: مصطفى السقا وآخرين، ط/٢، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي–القاهرة، ١٣٧٥هـ–١٩٥٥م.

٣٤- الظاهرة القرآنية، مالك بن نبي، ط/٤، دار الفكر–دمشق، ١٤٢٠هـ–٢٠٠٠م.

٣٥- عبد القاهر الجرجاني،أحمد أحمد بدوي،سلسلة أعلام العرب،العدد ٨.

٣٦- فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ط/ دار المعرفة–بيروت، ١٣٧٩هـ.

٣٧- في الفلسفة الإسلامية منهج وتطبيقه، إبراهيم مدكور، ط/٢، دار المعارف– القاهرة، ١٣٨٨هـ.

٣٨- القرآن نزوله، تدوينه، ترجمته، تأثيره، ريجيسبلاشير، ترجمة رضا سعادة، تحقيق ومراجعة: محمد علي الزغبي، دار الكتاب اللبناني–بيروت، بدون تاريخ.

٣٩- قضايا قرآنية في الموسوعة البريطانية نقد مطاعن ورد شبهات، فضل حسن عباس، ط/٣، دار الفتح–عمان، الأردن، ١٤٢١هـ–٢٠٠٠م.

٤٠- لحن العوام، أبو بكر محمد بن حسن بن مذحج الزبيدي، تحقيق: رمضان عبد التواب، ط/٢، مكتبة الخانجي–القاهرة، ١٤٢٠هـ–٢٠٠٠م.

٤١- لسان العرب، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور، ط/٣، دار صادر– بيروت ، ١٤١٤هـ.

٤٢- مباحث في علوم القرآن، صبحي الصالح، ط/٢٤، دار العلم للملايين، ٢٠٠٠م.

٤٣- المحكم في نقط المصاحف، أبو عمرو عثمان بن سعيد الداني، تحقيق: عزة حسن، ط/٢ دار الفكر-دمشق، ١٤٠٧هـ.
٤٤- المستشرقون في الميزان، أبو مجاهد عبد العزيز عبد الفتاح عبد الرحيم، مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، السنة السابعة، العدد الأول، رجب ١٣٩٤هـ.
٤٥- المستشرقون والتاريخ الإسلامي، علي حسني الخربوطلي، ط/ الهيئة المصرية العامة للكتاب- القاهرة، ١٤٠٨هـ.
٤٦- المستشرقون والدراسات القرآنية، محمد حسين الصغير، ط/ المؤسسة الجامعية- بيروت، ١٤٠٣هـ.
٤٧- المستشرقون والقرآن الكريم، محمد أمين حسين بني عامر، دار الأمل للنشر والتوزيع- إربد، ١٤٢٥هـ.
٤٨- المستشرقون والقرآن دراسة لترجمات نفر من المستشرقين الفرنسيين للقرآن وآرائهم فيه، إبراهيم عوض، ط/١ مكتبة زهراء الشرق- القاهرة، ١٤٢٣هـ.
٤٩- المستشرقون والقرآن، إسماعيل سالم عبد العال، سلسلة دعوة الحق تصدرها رابطة العالم الإسلامي-مكة المكرمة، السنة التاسعة، العدد ١٠٤، العام ١٤١٠هـ-١٩٩٠م.
٥٠- المستشرقون، نجيب العقيقي، ط/٣، دار المعارف- القاهرة، ١٣٨٤هـ.
٥١- المصاحف، أبو بكر بن أبي داود السجستاني، تحقيق: محمد عبده، ط/١ الفاروق الحديثة-القاهرة، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م.
٥٢- المصحف الشريف أبحاث في تاريخه وأحكامه، عبد الفتاح القاضي، ط/ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية-القاهرة، ١٣٨٨هـ-١٩٦٨م.

٥٣- معجم أسماء المستشرقين، يحيى مراد، ط/٥، دار الكتب العلمية- بيروت، ١٤٣٠هـ.
٥٤- معجم متن اللغة، أحمد رضا، دار مكتبة الحياة- بيروت، ١٣٨٠هـ.
٥٥- مفاتيح الغيب، أبو عبد الله فخر الدين محمد بن عمر الرازي، ط/٣، دار إحياء التراث العربي- بيروت، ١٤٢٠هـ.
٥٦- مفتريات على الإسلام، أحمد محمد جمال، ط/٣ مطبوعات الشعب، ١٣٩٥هـ.
٥٧- مناسبات الآيات والسور، أحمد حسن فرحات، مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، العدد ١٠.
٥٨- مناهج المستشرقين البحثية في دراسة القرآن الكريم، حسن عزوزي، مجلة البحوث والدراسات القرآنية، المدينة المنورة: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، ضمن أبحاث ندوة القرآن في الدراسات الاستشراقية ١٤٢٧هـ.
٥٩- مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم الزرقاني، ط/٣، مطبعة عيسى البابي الحلبي.
٦٠- موسوعة المستشرقين، عبد الرحمن بدوي، دار العلم للملايين- بيروت، ط/٣، ١٤١٣هـ.
٦١- موسوعة علم النفس، أسعد رزق، ط/٣ المؤسسة العربية للدراسات والنشر- بيروت، ١٤٠٧هـ.
٦٢- موسوعة علم النفس، أسعد رزق، ط/٣، المؤسسة العربية للدراسات والنشر- بيروت، ١٤٠٧هـ.
٦٣- النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن الكريم، محمد عبد الله دراز، ط/ دار القلم للنشر والتوزيع، ١٤٢٦هـ.

٦٤- النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن الكريم، محمد عبد الله دراز، ط/ دار القلم للنشر والتوزيع، ١٤٢٦هـ.
٦٥- النهاية في غريب الحديث والأثر، أبو السعادات مجد الدين المبارك بن محمد بن محمد بن عبد الكريم بن الأثير الجزري، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي، محمد محمود الطناحي، المكتبة العلمية- بيروت، ١٣٩٩هـ.
٦٦- النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق: طارق أحمد الزاوي، محمود محمد الطناحي، ط/ المكتبة العلمية- بيروت، ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م.